

سأكتب لك حتى أكبر

الكتاب : سأكتب لك حتى أكبر

التصنيف : روايه

المؤلف : دعاء محمد

التصحيح اللغوي : فريده أشرف

تصميم الغلاف : إبتهاال محمد

التنسيق الداخلي : أحمد طه

الطبعة الأولى : 2026 / 2027

رقم الإيداع : 2026 / 9591

الترقيم الدولي : 3 - 00 - 8490 - 633 - 978



الناشر : دار انطلاق للنشر والتوزيع

للتواصل: startpublishing372@gmail.com

من هنا تبدأ الحكايات ويبدأ الأثر

تليفون الدار : 01155799321

©جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير

المقدمة

« وقفتُ على قارعةِ الغمرِ، أنتظرُ اعتذارًا من مجهول، عن ليالٍ تجمد فيها نبضي دُعرًا، وعن
تيهٍ أضاع بُوصلتي تحت شمسِ الظهيرة، وعن روحٍ ذبلت وهي تجوعُ لمسةً واحدة، يدًا تُجيدُ
لغةَ الحنان ». »

الإهداء:

» إليك..

يا مَنْ تملكُ مفتاحَ الحكاية، وتجهلُ أنكَ الحكايةُ ذاتها «.

« لا يعبر الإنسان الحياة مرتين،

لذا نترك الكلمات، كأثارٍ أقدم تدلُّ علينا ».

البداية

- مرحبًا، أنا نور.

هكذا بدأتُ، وكأنني أُلقي حجرًا في بئرٍ لا قاع لها، وأنتظرُ صدى صوتي أن يعود إليَّ.

يقولون أنَّ الأشياء التي نشتريها بالمال نملكها، أمَّا الأشياء التي نشتريها بكلماتنا فهي التي تملكنا، وأنا اليوم يا سيدي، لا أملكُ من أمري شيئًا سوى قلمٍ وورقةٍ، ووعِدٍ غريبٍ علَّقتهُ في عنقي كما تُعلّق النائم.

لم يكن فاعل الخير يريدُ صكوًّا أو رهونًا عقاريَّة؛ كان يريدُ فقط أن يقرأني، أن يرَ كيف تتشكّل روعي تحت مطرِ الأيام.

اشتراطُ أن أكتب له رسالة كل شهر، ليمنحني في المقابل حقَّ أن أكون نورًا في مدينةٍ لا تعرفُ الظلام.

«عن الذين منحونا أجنحةً، ونسوا أن يعطونا الخريطة».

«إلى غريبٍ يقرأ، وصديقٍ لا يُرى، مرحبًا..

لا أدري إن كان من الأدب أن أبدأ بكلمة مرحبًا لشخصٍ يدفعُ ثمنَ حبري، ولكني

تعلمتُ في دروسي الأولى أنَّ الأرواح لا تعترفُ بالألقاب.

لقد جنُتُ من هناك، حيثُ الصمت هو اللغة الوحيدة المتاحة، والآن أجدني في رُدهاتِ

الجامعة، تائهةً كعصفورٍ أضاعَ سِرْبَهُ في الزحام، الجميعُ هنا يبحثون عن المعدّلات،

وأنا وحدي أبحثُ عن الكلمات التي تليقُ بصمتك.

سأعترفُ لك :

لقد خِفْتُ اليوم، خِفْتُ من أن تكتشفَ أنَّ الفتاة التي منحتها كل شيء، ليست سوى

فراغٍ يحاولُ أن يمتلئ، هل جرّبتَ يومًا أن تكون مدينًا بوجودك لشخصٍ، لا تستطيعُ

حتى أن تقول له شكرًا وجهًا لوجه؟

إنَّ الكتابةَ إليك يا سيدي هي نوعٌ من الصلاة الصامته، سأكتبُ لك ليس لأنِّي مُلزمة، بل لأنِّي أدركتُ أنني دونك سأظلُّ صغيرةً جدًّا، سأكتبُ لك حتى أكبر.»

نور

أودعتُ الورقةَ في جوفِ الصندوق، كمن يُلقي بطفله في اليمِّ، ويرجو له نَجاةً لا يراها.
لم يكن البريدُ مجردَ صندوقٍ حديدي، كان مِقْصَلةً قطعت حبلَ سُرَّتِي مع الصمتِ القديم.

مشيتُ عائدةً، وأنا أشعرُ بخفّةٍ مُرعبة، الخفّة التي يشعرُ بها المرءُ حين يتخفّفُ من أسرارهِ، أو حين يفقدُ شيئاً من روحهِ دون قصد.

مضت الأيامُ ثقيلةً، كأنها تمشي على جرحٍ مفتوح، كنتُ أدرسُ (دهاليزَ النفس) في كتبِي، فأجدُني غريبةً عن نفسي أكثر من ذي قبل، هل قرأني؟ هل مرّت عيناهُ فوقَ انكساري كما تمرُّ الريحُ فوقَ رمالِ الصحراءِ فلا تتركُ أثرًا؟ أم أنه احتفظَ بي في زاويةٍ من قلبهِ المجهول؟

الصمْتُ يا سيدي ليس عدماً، الصمْتُ صرخةٌ جمدت في منتصفِ الطريق، والانتظارُ
ليس وقتاً يمرّ، إنه عمرٌ يُستنزفُ في ترقّبِ خيالٍ لا يأتي.

حين أطبقُ ليلُ الشهرِ الأولِ جفونه، وحين لم يأتِ الصدى، أدركتُ أنّ العهدَ لم يكن
كلاماً بكلام، بل كان صمّاً يُقابلهُ احتراق.

لذا، وجدتُ أصابعي تتلمّسُ القلمَ من جديد، لا لأشكركَ، بل لأتأكّد أنّي ما زِلْتُ على
قيدِ البوح.

«عن الوجوه المستعارة، وعن وجهي الذي أضعته».

التاريخ : ليلة مطيرة من تشرين.

إلى : سيدي الذي يراقب من خلف العتمة.

« مرحباً ..

هل جرّبت يوماً أن تسير في شارعٍ ممتلئٍ بالناس، وتشعر أنك خرافة لا يراها أحد؟

في جامعتي يا سيّدي، الجميع يرتدون وجوهاً لم يُولدوا بها، يتبادلون ضحكاتٍ مُعلّبة، ويتحدّثون عن أحلامٍ تُشبه إعلانات التلفاز، وأنا.. أنا التي جئتُ من هناك، حيث الأشياء تُسمى بأسمائها الحقيقية، أقفُ الآن أمام مرآة غرفتي، وأسأل: أيّ هذه الوجوه هو وجهي؟

لقد درستُ اليوم في محاضرتي الأولى عن الأقنعة الاجتماعية، وأدركتُ أنّني الوحيدة التي لا تملك قناعاً يليق بهذا المكان، ثيابي تفضحُ قريتي، وصمّتي يفضحُ خوفي، ورسائلي إليك تفضحُ حاجتي.

يقولون أنَّ الفقرَ عيب، لكنني اكتشفتُ أنَّ العيب الحقيقي هو أن تملك كل شيء ولا تملك حقيقتك.

لقد نظرتُ إليَّ زميلةُ اليوم بشفقة، لأنَّ حذائي قديم، ولم تكن تعرف أنَّ هذا الحذاء قطع أميالاً من التعب ليصل إلى هنا، بينما سيَّارتها الفارهة لم تُعلمها معنى المسافة.

سأعترف لك بصدقٍ مرّ:

لقد تمنَّيتُ اليوم لو أنني لستُ مدينة لك، ليس لأتّي لا أحب عطاءك، بل لأتّي شعرتُ بمرارة أن أكون مشروعاً يُراقبه شخصٌ لا يراه، هل أنا بالنسبة لك تجربة مخبريّة؟ أم أنك تريد أن ترى كيف ينمو النور في وعاءٍ من طين؟

أنا مُتعبَةٌ يا سيدي، والكتابة إليك هي التعب الوحيد الذي يمنحني الراحة».

نور

أَقْلَعْتُ المَظْرُوفَ هَـذِهِ المَرَّةَ بَحْدَةً، وَكَأَنَّني أَغْلَقْتُ بَابًا فِي وَجْهِ العَالَمِ.

لَمْ تَكُنِ الكَلِمَاتُ الَّتِي كَتَبْتُهَا عَنْ حِذَائِي القَدِيمِ، وَشَفَقَةِ الزَمَلَاءِ مَجْرَدَ حَبْرٍ، كَانَتْ صَرْخَةً مَكْتُومَةً فِي مَمَرِ الجَامِعَةِ الطَوِيلِ، مَشِيتُ نَحْوَ صَنْدُوقِ البَرِيدِ، لَكِنِّي هَذِهِ المَرَّةَ لَمْ أُلْقِهِ بِامْتِنَانٍ، أَلْقَيْتُهُ بِتَحَدٍّ!

بَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّ هَذَا الغَرِيبَ الَّذِي يَدْفَعُ ثَمَنَ تَعْلِيمِي، يَسْرِقُ مِنِّي أَثْمَنَ مَا أَمْلِكُ: سَرِّي الصَّغِيرَ، صِرْتُ أَتَخَيَّلُهُ فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ، فِي وَجْهِ أَسْتَاذٍ يُطِيلُ النَظَرَ، أَوْ فِي ظِلِّ رَجُلٍ غَرِيبٍ يَمُرُّ بِجَانِبِي وَيَحْمِلُ رَائِحَةَ الورْقِ القَدِيمِ، هَلْ أَنْتَ مَوْجُودٌ حَقًّا يَا سَيِّدِي؟ أَمْ أَنَّكَ مَجْرَدُ فِكْرَةٍ اخْتَرَعْتُهَا لِأَهْرَبَ مِنْ وَحْدَتِي؟

الصَمْتُ الَّذِي كَانَ أَمَانًا فِي البَدَايَةِ، صَارَ الآنَ سَجْنًا بِأَسْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ.

فِي لَيْلَةٍ خَرِيفِيَّةٍ بَارِدَةٍ، قَرَّرْتُ أَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ كَوْنِي الْمُتَلَقِّي، وَأَنْ أَبْدَأَ رَحْلَةَ البَحْثِ عَنْ المُعْطِي، لَنْ أَكْتَفِيَ بِالكَلِمَاتِ، سَأَبْحَثُ عَنْ مَلَامَحِكَ فِي عَيُونِ العَابِرِينَ.

«عن اليد التي تمتد من العتمة ولا تُصافح».

التاريخ : ليلة اكتمال القمر.

إلى : سيدي الذي يختبئ خلف الكلمات.

«مرحباً..»

يقولون في علم النفس أنَّ الصمت هو أقوى أنواع التواصل، ولكنني اليوم أقول لك : إنَّ

الصمت أحياناً يكون أقسى أنواع السُّلطة.

لقد تعلّمتُ في محاضرتي اليوم، أنَّ الإنسان يبحث دائماً عن الأمان في الوجوه،

فكيف لي أن أجد أمان في غيب؟ وكيف لي أن أشعر بالامتنان ليدٍ تمتد لتتقذني من

الغرق، لكنها ترفض أن تلمس يدي؟

سأعترف لك بشيءٍ غريب :

لقد بدأتُ أخافُ منك، ليس خوفاً من أذى، بل خوفاً من أن تكون مُجرّداً من

المشاعر، مجرد آلة تدفعُ ثمنَ حبري، لتتفرّج على صراعي مع الحياة.

في ممرات الجامعة، صرْتُ أتأملُ وجوهَ الرجالِ المُسنّين، والشبابِ الهادئين، وأسألُ نفسي :

هل أنتَ ذلك الأستاذ الذي يُصحِّحُ ورقتي بصمت؟

أم أنكَ ذلك الغريب الذي جلسَ بجانبِي في الحافلة ولم يقلْ كلمة؟

أم أنكَ مجردُ وهمٍ جميلٍ، اخترعهُ قلبي لئلا أشعرَ بالوحدة؟

يا سيدي..

أنا لستُ حالةً دراسية، أنا فتاةٌ من لحمٍ ودمٍ وأحلام، لقد سئمتُ أن أكون نورًا تضيءُ لك عتمةً، بينما أنتَ ترفضُ أن تمنحني حتى ظلك.

في رسالتي القادمة، ربما سأحكي لك عن الخوف، ليس خوفاً من الفقر، بل خوفاً من أن أكتشفَ في النهاية، أنكَ لم تكن موجوداً أصلاً.

اكتب لي ولو كلمة، أو اصمت للأبد، لكي أعرف على الأقل أن صمتك اختيار وليس عدماً.

نور

« تركتُ الرسالةَ في الصندوق، وشعرتُ كأنني ألقىُ بقنبلةٍ موقوتةٍ في بئرٍ عميقةٍ ».

لم يكن الخوفُ هذه المرةَ من الجوعِ أو الفقر، بل كان خوفًا من نوعٍ آخر، خوفَ اليتيم الذي صرخَ في وجهِ مَنْ يُطعمه.

طوالَ الليل، كان سُؤالي يتردّدُ في الغرفةِ كظنينِ نحلةٍ عالقةٍ: هل سيغضب؟ هل سيسحبُ يدهُ الضوئيةَ ويتركني أغرقُ في عتمةِ قريتي من جديد؟ هل كانت جرأتي نضجًا أم انتحارًا؟

الغريبُ يا سيدي، أنني رغمَ الرعبِ، نمتُ تلكَ الليلةَ بعمقٍ لم أعرفه من قبل، وكأنَّ الصدقَ -مهما كان ثمنه باهظًا- هو الوسادةُ الوحيدةُ التي لا تخونُ الرأسَ.

استيقظتُ في الصباحِ التالي، لا أنتظرُ ردًّا، بل أنتظرُ حُكمًا، وكنْتُ أعرفُ يقينًا، أنَّ (نور) التي كُتبت تلكَ الرسالة، لن تعودَ أبدًا تلكَ الفتاةَ التي كانت تخشى أن ترفعَ عينها في وجهِ الأقدار.

في زاويةٍ منسيّةٍ من قاعاتِ المحاضرات، تجلسُ نور كأنها أيقونة رُسمت بماء الغياب،
عينها لا تُبصرانِ الوجوه، بل تخترقانِ الجدرانَ، لتبحثا عن ملامحٍ شكّلت من غبارِ
الرسائل، هي ليست هناك، رغم أنّ جسدها يشغلُ حيزاً من الفراغ، ورغم أنّ اسمها
يُنَادى في كشوفاتِ الحاضرين.

هي تعيشُ في (البرزخ)...

بين يدٍ تمنحها الحياة، ووجهٍ يرفضُ أن يمنحها الضوء.

تمشي في زحامِ الجامعة، وهي تحملُ سرّها كخنجرٍ مغمودٍ في صدرها، كلّما اقتربت
من الصندوقِ الحديدي، شعرت بنّصلِ الحقيقةِ يغوصُ أكثر، لكنها تستعذبُ الألم،
فالوجعُ هو الدليلُ الوحيدُ على أنها لا تزالُ تشعر.

تتساءلُ في ليلها الموحش:

هل أنا التي تملأُ هذه الأوراق؟ أم أنّ الصمتَ هو الذي يكتبني؟ الجميعُ يرى فتاةً
تدرسُ النفسَ، ولا أحدٌ يرى النفسَ التي تآكلت وهي تنتظرُ صدىً لا يأتي، هي الآن
ليست سوى صلواتٍ تُرفعُ لربِّ مجهول، وأمنيّاتٍ تُلقى في بئرٍ لا قاعَ له.

هي تُدركُ في أعماقِ نقطةٍ من رُعبها، أنّ أسوأَ أنواعِ الفقدِ ليس فقدَ مَنْ نُحب، بل هو
الانتظار الطويلُ لسرابٍ، ألبسناه ثوبَ المُنقذ، وصدقنا كذبتَهُ حتى صرنا نحنُ الكذبة.

يُخطئ مَنْ يظنُّ أنَّ الكتابةَ فعلٌ رفاهية، الكتابةُ هي الطريقةُ الوحيدةُ التي نمنعُ بها
أنفسنا من الانفجار!

في داخلِ كلِّ مَنَّا وحشٌ يقتاتُ على الصَّمتِ، وكلِّما طالَ سكوتنا، كُبرَ ذلك الوحشُ
حتى صارَ أضيقَ من جلودنا، نحنُ لا نكتبُ لننقلَ خبرًا، ولا لنحكي قصةً، ولا لننالَ
إعجابَ غريبٍ يمرُّ صدفَةً فوقَ أوجاعنا، نحنُ نكتبُ لننجو!

نكتبُ لكي لا نختنقَ بالكلماتِ التي وقفت في حناجرنا كشظايا الزجاج، نكتبُ لكي
نُفرِّغَ قلوبنا من فائضِ الحنين، ومن ثَقَلِ الخيباتِ التي لا تجدُ مكانًا في أحاديثنا
العادية.

إنَّ الورقةَ البيضاءَ هي الصِّدْرُ الوحيدُ الذي لا يضيقُ بآهاتنا، والقلمُ هو المِبْضَعُ الذي
نفتَحُ به خُرَاجَ الروحِ ليتنَفَّسَ الوجد.

فيا لشقاءِ مَنْ لم يجد لقلبه طريقًا نحو المحبرة، ويا لغربةِ مَنْ عاشَ وفي جوفه كلمة
واحدة، لم يجرؤ يومًا أن يضعها في ظرفٍ ويُرسلها إلى مجهول.

« عن الرقص فوق الجراح، وعن يدي التي ترفضُ التصفيق ».

التاريخ : الثالثة فجراً (خارج مواعيد البريد)

إلى : سيدي، يا مَنْ منحتني ثَمَنَ كُتبي، ولم تمنحني ثَمَنَ كرامتي أمامهم.

«مرحباً..»

لا تنتظر مني هذه المرة ديباجةً مُنمّقة، ولا شكراً محشواً بالامتنان، أنا أكتبُ لكِ
والدّمعُ ليس في عيني، بل في حبري.

لقد أقاموا اليوم في الجامعة حفل تكريمٍ للمتفوقين، كنتُ هناك، أقفُ بقميصي الذي
غسلتهُ مئات المرات حتى شحب لونه، وبجذائي الذي تعرفُ قصّة بؤسه، صعدتُ إلى
المنصة، وصفّقوا لي كثيراً، لكن تصفيقهم كان يُشبهُ وقع السيّاط على ظهري.

هل تعرفُ لماذا؟

لأنّني لمحتُ في أعينهم تلك النظرة، نظرة الأسياد لعبدٍ نجح في ترويض جوعه، لم
يكونوا يصفقون لنبوعي في علم النفس، كانوا يصفقون لقصة الكفاح التي أمثلها لهم،
كنتُ بالنسبة لهم عرضاً مسرحياً جميلاً، يُريح ضمائرهم المُتعبة من التّرف.

في تلك اللحظة، كرهتُ المُتبرعين جميعًا، وكرهتك أنت أيضًا!

سألت نفسي: لماذا تتركني عاريةً هكذا تحت أضواء شهرتهم؟ لماذا تدفعُ لي ثمنَ العلم، وتتركني جائعةً لسترٍ معنويٍّ لا يشتريه المال؟

لقد عُدْتُ إلى غرفتي، وألقيتُ بشهادة التفوق في الزاوية، ما نفعُ أن أكون الأولى في دراسة النفس البشرية، وأنا عاجزةٌ عن فهم نفسي التي تشعرُ بالمهانة وهي تأكلُ من يدٍ لا تراها؟

سيدي..

أنا لستُ قصةً ملهمة تُحكى في حفلاتكم، أنا جرحٌ ينزف، وإذا كان ثمنُ تعليمي هو أن أقفَ كل عامٍ لأتلّقَ تصفيقَ الشفقة، فخذ مالك، وأعد لي فقري القديم، ففيه على الأقل كنتُ أملكُ وجهي كاملاً.

لن أعتذر عن قسوتي، فالصدقُ دائماً قبيحٌ.»

نور

عُدْتُ إلى غرفتي، وكان صدى التصفيق لا يزال يطنُّ في أذني كأنه شتيمَةٌ مُهذبة،
خلعتُ قميصي الشاحب، ونظرتُ إلى شهادة التفوق المُلقاة على الطاولة، كانت تبدو
لي ككفنٍ أبيض لأحلامي التي ماتت تحت نظراتِ الشفقة.

جلستُ على طرفِ السرير، والظلامُ يزحفُ من زوايا الغرفة ليُعانقني، وشعرتُ للمرةِ
الأولى أنَّ العلمَ الذي أدرسه لا يُداوي الجروح، بل يمنحنا فقط المجاهر لنراها بوضوحٍ
أكبر.

لماذا أشعرُ بالهزيمة وأنا في قمةِ نجاحي؟

لماذا أبكي والجميعُ يُهنّئني؟

لأنّني أدركتُ الليلةَ أنّني مجردُ رقمٍ في سجلّاتِ كرمك، وحكايةٍ يتسلى بها الأثرياءُ قبلَ
النوم، لقد كنتُ أظنُّ أنَّ نجاحي سيُحرّرنِي، فإذا به يُقيّدني بامتنانٍ أثقل من سلاسلِ
الحديد.

أخرجتُ ورقةً بيضاء، لكن يدي كانت ترتجفُ، لدرجةِ أنني لم أستطع كسرَ صمتها.

نظرتُ إلى جدارِ الغرفة البارد، وقلْتُ بصوتٍ مخنوق :

- لَيْتَكَ لَمْ تَفْعَلْ، لَيْتَكَ تَرَكْتَنِي هُنَاكَ فِي قَرْيَتِي، أُبَيْعُ الْخُبْزَ بِكَرَامَةٍ كَامِلَةٍ، بَدَلًا مِنْ أَنْ
أُبَيْعَ رُوحِي هُنَا، مُقَابِلَ عِلْمٍ يَجْعَلُنِي أَشْعُرُ بِصِغْرِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَرَاكَ فِيهَا وَلَا أَرَاكَ.

تلك الليلة، لم تنم نور المتفوقة، بل نامت الطفلة الخائفة، وهي تحتضن وسادة مبللة
برائحة الندم.

« عن الشجرة التي أثمرت وجوهاً، وعن خوفي من أن ألمح وجهك ».

التاريخ : ليلة باردة، جفّ فيها الحبرُ قبل الوجع.

إلى : سيدي، يا مَنْ تشتري لي العقل، وتتركني أصارعُ جنوني.

«مرحباً..»

لن أحكي لك اليوم عن الجامعة، ولا عن تعب الطريق، ولا عن ثيابي التي حفظت تفاصيل بؤسها، سأحكي لك عن أُمي حين كانت تجلسُ في ساحة دارنا القديمة، وتحكي لي عن شجرة المرايا.

تقول الأسطورة في قرينتنا: أنّ هناك شجرةً في أقاصي الجبل، أوراقها ليست خضراء، بل هي مرايا صغيرة، كلُّ مَنْ يقتربُ منها ليرَ وجهه، يرى حقيقةً التي يخشاها، لا الملامح التي يمشطها كلُّ صباح.

والسرُّ يا سيدي، أنّ أحداً لم يستطع قط أن يقطف ورقةً واحدة، لأنَّ الحقيقة دائماً تكسرُ اليد التي تُحاول امتلاكها.

أتدري لماذا تذكّرتُ هذه الحكاية اليوم؟

لأنني بدأت أشعر أن منحتك لي هي تلك الشجرة، أنت تمنحني المال لأدرس علم النفس، لأشرح أرواح الآخرين، لأفهم دوافعهم وخوفهم، لكنك في الحقيقة تمنحني مرآة، لأرى فزعي منك ومن صمتك.

سأخبرك بشيءٍ ساخر:

لقد صرتُ أرى وجهك في كلِّ نظريةٍ أدرسها، حين أتحدثُ عن عقدة النقص، أتساءل: هل يمنحني هذا الغريب ماله ليشعرَ بالعظمة فوق حطامي؟

وحين أدرسُ النقص، أقول:

- هل يعيشُ هذا الرجلُ حياتي بدلاً من حياته لأنه يفتقدُ الدهشة؟

أمي كانت تقول أن المحسن الحقيقي هو مَنْ يتركُ خبزهُ ويمضي قبل أن يستيقظَ الجوع، أمّا أنت.. فأنت تجلسُ في الشرفة، تُراقبُ مائدتي بمنظارٍ صمتك، وتنتظرُ مني أن أكتبَ لكَ مذاقَ الطعام في كلِّ رسالة، أليس هذا نوعاً من السادية الأدبية؟

أن تدفعَ لي ثمنَ البصيرة، لكي أرى بها عمتك بوضوحٍ أكبر؟

شكراً على المرآة يا سيّدي، لكن احذر، فالشجرة التي حكّت عنها أمي، كانت تتكسرُ حين تلمحُ وجهًا مُزيفاً، فهل أنتَ حقيقيٌّ بما يكفي لتحمّلَ ثقلَ نظرتي؟».

نور

خرجتُ من مكتبِ البريد، ولم أنظر خلفي.

الحقيقة أنني بدأتُ أستمعُ بدورِ المُحقِّق الذي يُراقبُ الظَّلال.

جلستُ على مقعدٍ عامٍّ في السَّاحة، أراقبُ سيِّدةً عجوزًا، تُطعمُ الحمامَ بُقُعاتِ خبزٍ يابس، وكنتُ أتساءلُ بسخرية:

- هل يشعرُ الحمامُ بالامتنانِ لها؟ أم أنَّه يظنُّ أنَّ السَّمَاءَ هي التي تُمطرُ خبرًا؟

الناسُ من حولي يركضون خلفَ مواعيدهم، وأنا أركضُ خلفَ وهمٍ، أدفعُ له الحروفَ ليمنحني الحياة.

أخرجتُ من حقيبتِي نقّاحةً حمراء، قضمتها ببرودٍ وأنا أفكّر:

- يا سيدي، لو كنتَ تراني الآن، هل كنتَ ستُعجبُ بذكائي؟ أم بوقاحةِ الطريقةِ التي آكلُ بها نقّاحتي وأنا أشرحُ جثةَ كرمك؟

لقد مللتُ من كوني مشروعًا ناجحًا، أريدُ فقط أن أكونَ بشريَّةً تضحكُ من قلبها على رجلٍ غامضٍ، يظنُّ أنَّه يمتلكُ مفتاحَ سعادتي، بينما هو لا يملكُ حتى اسمًا في ذاكرتي.

« عن الخيانة البيضاء ، وعن الرجل الذي سرق ظلي ».

التاريخ : سحرٌ حينما يتعانقُ الضوءُ والعتمة.

إلى : سيدي، يا مَنْ نسجتَ لي كفنًا من حريرِ الورق.

«مرحبًا..»

اليوم تَلَطَّخَ بياضُ رسالتي بشيءٍ آخر غيرِ الحبر، تَلَطَّخَ برائحةِ الياسمين التي علقت في كَفِّي حين مررتُ بجانبه.

سأعترفُ لك بما لم تجرؤ عليه نظريَّاتي: لقد وجدتُ ثقبًا في جدارِ صمتك العظيم، ظهرَ هو لا كمنحةٍ دراسية، بل كصاعقةٍ لم تستأذن الغيوم، رجلٌ لا يملكُ من اللغةِ إلا الصمت، لكن صمتهُ يختلفُ عن صمتك؛ صمتك جدار و صمتهُ بحر.

سيدي..

لقد قرأتُ في كتبِ النَّفس عن الأمان، لكنني لم أفهم معناه إلا حين نظرتُ إليّ؛ لم يُرمَمِ مستقبلِي بماله، بل رَمَمَ كسري بنظرته، هو لا يعرفُ أنني نور المتفوقة، ولا يعرفُ أنَّ هناك غريبًا وراء البحارِ، يشتري لي الوقتَ لأكونَ ذكيَّة، هو يراني امرأةً فقط، امرأةً من لحمٍ ودمٍ ودهشة، لا مشروعًا ناجحًا يحتاجُ للتمويل.

أشعرُ بالخجلِ وأنا أكتبُ لكَ هذا، كأنني أخونُ دينًا قديمًا.

لكن، قل لي برّك: كيف أحرابُ رجلاً يقرأُ تعبى في زوايا فمي قبل أن أنطق؟ وكيف أظلُّ وفيّةً لوهمٍ يسكنُ الورق، بينما هناك يدٌ حقيقية كادت تلمسُ أصابعي، فاهتزَّ الكونُ من حولي؟

أنا خائفةٌ منه، لأنه قد يجعلني أستغني..

وخائفةٌ منك، لأنك قد تكونُ (أنا) في مرايا أخرى.

هو يُهديني الآن، وأنتَ تهديني الغد..

فمنَ منهما الأحقُّ بقلبِ فتاةٍ سئمت من العيشِ في المستقبل، الذي ترسمهُ أنتَ بالمسطرةِ والقلم؟

سأخبرك بسرّه الصغير: هو لا يملكُ اسمًا كبيرًا، ولا قصرًا، ولا صناديق بريد، هو يملكُ فقط حقيقتي التي خبأتها عنك لسنوات..

نور

في تلك اللحظة، سقطت الأسماء والمِهْنُ والعناوين كقشورٍ يابسة.

لم تعد نور طالبةً، ولا مَدِينَةً، ولا ظلاً لأحد، كانت مجرد نبضٍ عارٍ، اكتشف فجأةً أنَّ الزلزالَ لا يستأذنُ الأرضَ قبل أن يرجَّها، أحسَّت بخدرٍ لذيذٍ يزحفُ من أطرافِ أصابعها نحو قلبها، ليس لأنها وُجِدَتْ، بل لأنها ضاعت في عَيْنينِ حقيقيَّتين، ضياعاً شهياً لا يُشترى بكلِّ يقينِ العالم.

لقد أدركتُ أنَّ أصدقَ أنواعِ الوجودِ، هو ذلك الذي يبدأ برعشةٍ يدِ ترفضُ الانصياعَ، وبخفقانِ صدرٍ لا يملكُ تفسيراً، وبصمتٍ طويلٍ يقولُ كلَّ شيءٍ، دون أن يحتاجَ لحبرٍ واحد.

الحبُّ يا سيدي، هو تلك الخطيئةُ الجميلةُ التي تجعلنا نشعرُ بأننا آلهةٌ صغيرة، نملكُ الكونَ بلمسة.

لم يكن آدم يُشبهه الأبطال الذين تقرأ عنهم نور في رواياتها المترجمة، ولم يكن يرتدي بذلةً تُوحى بالثراء كأصحاب المِنح، كان يرتدي قميصاً كتانياً بسيطاً، ويحمل في يديه آثار ألوانٍ زيتية، فهو لا يدرس النفس البشرية من الكتب، بل يرسمها على اللوحات.

التقيا عند مخرج الجامعة، كانت السماء تُنذر بمطرٍ وشيك، ونور تحتضن حقيبتها
الثقيلة كأنها تحمي أسرارها من البَل.

وقف أمامها فجأة، وقال بصوتٍ هادئ لا يحمل أيّ تكلف:

- لماذا تهربين دائماً من عينيك يا نور؟

ارتبكت، لم ينادها أحدٌ باسمها بهذه البساطة من قبل، فالمُتبرع يناديها نور كأنه يُسمّي
نجمةً بعيدة، والأساتذة ينادونها بالطالبة المتفوقة، أمّا هو فقد نطق اسمها وكأنه
يلمسه.

أجابت وهي تحاول استعادة وقارها:

- أنا لا أهرب، أنا فقط متأخرة عن موعدٍ مهم.

ابتسم آدم، وهي ابتسامة لم يشتريها مال:

- الموعد المهم هو مع مكتب البريد، أليس كذلك؟ لقد رأيْتُكِ هناك ثلاث مرات،
تكتبين كأنكِ تُفرغين روحكِ في ظرف، ثم تمشين وكأنكِ فقدتِ وزنكِ، مَنْ هو هذا
الشخص الذي يستحق كل هذا المداد؟

ساد صمْتُ ثقيل، شعرت نور لأول مرة أن سرّها الذي كانت تظنّه مُقدّساً، يبدو من
الخارج مُثيراً للشفقة.

قال آدم وهو يمد يده ليمسك بمظلتها:

- دعينا نمشي، المطر لا يحب الواقفين، وأنا لا أحب القصص التي تنتهي داخل
صناديق الحديد، احكِ لي عنكِ أنتِ، لا عن الفتاة التي تكتب الرسائل.

« عن الوقت الذي لا يُشتري، واللحظات التي تضيع في الانتظار ».

التاريخ : سويغات ما قبل الفجر.

إلى : سيدي، يا مَنْ تملكُ عنواني وتجهلُ زمني.

«مرحباً..»

اليوم سأحدثك عن الخسارة، ليس خسارة المال، بل خسارة العمر.

كنتُ أجلسُ مع آدم، وكان يُراقبُ ساعةً رمليةً قديمة في ركنٍ مرسومه، وقال لي جملةً جعلتني أتوقّف عن التنفس للحظة:

- الناسُ يظنون أنّ الانتظار هو فعلٌ صمت، لكنه في الحقيقة هو نزيّفُ وقت.

يا سيدي..

الفائدة التي أدركتها اليوم بمرارة، هي أنني عشتُ السنواتِ الماضية وأنا أنتظر، أنتظرُ المنحة، أنتظرُ ردّك، أنتظرُ تخرّجي، أنتظرُ أن تبدأ حياتي الحقيقية حين أراك، ونسيْتُ أنّ الحياة هي ما يحدثُ الآن، بينما نحنُ نخططُ للغد.

لقد منحتني المال، وهذا فضلٌ لا أنكره ولن أتخلّى عنه، فأنا ما زِلْتُ تلك الفتاة التي تحتاجُ لتمويلِ أحلامها، لكن هل سألتَ نفسك يوماً: ما فائدةُ أن تمنحني المستقبل، إذا كنتَ تسرقُ منّي الحاضر بصمتك؟

آدم لا يملكُ لي خطةً خمسيّة، ولا يَعِدني بوظيفةٍ مرموقة، لكنه يمنحني الآن، يمنحني ساعةً من الضحك، ودقيقةً من الشرود، وثانيةً من الشعور بأنني موجودة، ليس لأنني متفوقة، بل لأنني أنا.

سيّدي..

الفائدةُ التي أريدُ أن تصلّك هي: أنّ العطاء الحقيقي ليس هو الذي يبني لنا قصوراً في الغد، بل هو الذي يمنحنا طمأنينةً في اليوم، لا تجعل كرمك قيداً يجعلني أعيشُ في غرفة الانتظار للأبد، أنا سأكملُ دراستي، وسأنجح، وسأظلُّ مُمتنةً لمنحتك، لكنني لن أسمحَ لرسائلك أن تكون هي حياتي الوحيدة.

الحياةُ خارجَ ظرفِ البريد أجملُ بكثير، لأنها حياةٌ بلا توقّعات)، وبلا ديونٍ عاطفية.

شكراً لأنك تُموّلُ تعليمي، وشكراً لآدم لأنه يُعلّمني كيف أعيشُ».

نور

الغريبُ في هذه الحياة، أننا نقضي أعمارنا في انتظار الزلازل، بينما نحنُ نتشكّلُ بفعل
النّسمات الصغيرة التي لا نلقي لها بالاً.

نتخيّلُ أنّ السعادةَ قرارٌ كبير، أو نجاحٌ ساحق، أو لقاءٌ يُغيّرُ مجرى التاريخ، بينما
الحقيقةُ تكمنُ في تفاصيل أتفه من أن تُحكى: في رائحة القهوة التي تُباغتكَ في ممرٍ
بارد، في لمعة عينٍ غريبٍ ابتسمَ لك دون سبب، في شعورِ الخفة الذي يُداهمك حين
تُنهي عملاً شاقاً وتُغلقُ خلفك الباب.

نحنُ لسنا ما نقوله عنّا شهادتنا أو وظائفنا، ولا حتى ما يراه الناسُ في وجوهنا
المُتعبة، نحنُ تلك المسافات الصغيرة التي نقطعها بين فكرةٍ وأخرى، ونحنُ تلك
اللحظات الصامتة التي نقضيها في مراقبة المطرِ من خلفِ زجاجِ مُغَبّش، متسائلين:
هل يشعرُ المطرُ بالوحدة وهو يسقط؟

الفائدة الحقيقية ليست في الوصول، بل في الدهشة التي تُصيبنا ونحنُ نمرُّ بالأشياء
العادية، وكأنّنا نراها للمرة الأولى، أن تكتشفَ أنّ يدك التي اعتادت الإمساك بالأقلام
والمشارط، يُمكنها أيضًا أن ترتجفَ من قصيدة، أو تبرّدَ من ذكرى.

الحياة لا تُعاش بالخطِ الكبيرة، بل بالقدرةِ على التّنفّسِ بعمقٍ وسطَ الزحام، قُلْ: (أنا
بخير) لنفسك، قبل أن تقولها للعالم.

«عن الأبواب التي لا تُطَرَّق، والصدأ الذي يحكي».

التاريخ : صباح تشريني ضبابي.

إلى : سيدي، يا مَنْ يسكنُ خلفَ المسافات.

«مرحباً..»

اليوم سأحدثك عن أمرٍ صغيرٍ حدثَ معي، ليس له علاقة بعلم النفس ولا بآدم، بل له علاقة بالمكان.

كنتُ أسيرُ بجانب مكتب البريد القديم، ذاك الذي أودعُ فيه رسائلي إليك منذ سنوات، كانت الشمسُ تضربُ واجهتهُ الزجاجية بطريقةٍ غريبة، ولأوّل مرة اقتربتُ، وحاولتُ أن أرى ما وراء ذلك الزجاج المُغْبَش.

يا سيدي، خُيِّلَ إليّ أنّ الداخل غارقٌ في عتمةٍ سحيقة، وأنّ أكوامًا من الأوراق المنسيّة تملأُ الأرضية، بل إنني رأيتُ خيوطَ عنكبوتٍ تمتدُّ على المقابض النحاسيّة للباب الرئيسي، ضحكتُ في سري وقلّت:

- يا لكسلِ هؤلاء الموظفين! كيف يتركون مكانًا حيويًا كهذا يغرقُ في الإهمال؟

أردتُ أن أطرقَ الزجاجَ لأسألهم إن كانوا يحتاجون مساعدة، أو لأتأكدَ أنَّ رسالتي الأخيرة قد وصلت إلى كيس البريد الصحيح، لكنني تراجعَت، خِفْتُ أن يفتح لي رجلٌ عجوزٌ غاضبٌ، يُفسدُ عليَّ خيالي الجميل عنك، الغريبُ يا سيدي أنني منذ ذلك الصباح، صِرْتُ أسمعُ صوتَ صداقةٍ غريبةٍ في مَفصَّلاتِ صندوقِ البريد حين أفتحه، وكأنه يئنُّ من ثِقَلِ الكلمات، أو ربما يئنُّ لأنه لم يُفَتَّحْ منذ زمنٍ بعيد، بعيد جدًا.

لكن ما يَهمُّ هو أنَّ المنحة ما زالت تَصِلُ، وأنَّ اسمي ما زال موجودًا في كشوفاتِ الجامعة، وهذا يعني أنَّ هناك يدًا في مكانٍ ما، خلف تلك الأبواب الصَدِئَةِ أو غيرها، تُحرِّكُ خيوطَ حياتي بدقَّة.

سأذهبُ الآنَ لمُحاضرةِ الإدراك الحسِّي، ربما سأتعلمُ اليومَ أنَّ حواسنا قد تخذعنا أحيانًا، فترى الأبوابَ مُغلقةً، وهي في الحقيقة مشرعةٌ للريحِ».

نور

أحيانًا أشعرُ وكأنني أعيشُ في حلمٍ صمّمهُ مهندسٌ بارع، لكنه نسيَ أن يضعَ له
أعمدةً حقيقية.

كنتُ أسيرُ مع آدم في الشارعِ الخلفي للجامعة، ذاك الشارع الذي يمرُّ بمحاذاة مكتب
البريد القديم، كان آدم يُثرثرُ عن الألوانِ والحرية، وأنا كنتُ شاردةً في تلك النوافذِ
العالية للمبنى، النوافذ التي بدت لي اليوم وكأنها عيونٌ مُطفأة.

توقّفتُ فجأةً، وسألتُ آدم دون مقدّمات:

- آدم، هل يبدو لك هذا المبنى مأهولًا؟ أقصد هل تعتقدُ أنّ هناك أحدًا في الداخل
الآن؟

نظرَ آدم إلى المبنى، ثم نظرَ إليّ بابتسامةٍ ساخرة، وقذفَ بحجرٍ صغيرٍ نحو البابِ
الحديدي المُعلق بسلسلةٍ غليظة:

- هذا المكان؟ يا نور، هذا المبنى يفوح برائحة الماضي، أظنُّ أنَّ آخرَ رسالة خرجت منه كانت مكتوبةً بريشة نعامة! إنه مُغلَقٌ منذُ أن كنتُ صبيًّا أركضُ في هذه الشوارع، لماذا تسألين؟

ضحكتُ بفتور، وشعرتُ ببرودةٍ مفاجئةٍ تخرقُ عظامي:

- لا شيء، مجرد فضولِ طالبةٍ علمِ نفسٍ تُحبُّ الأماكنَ المهجورة.

أكملنا طريقنا، لكنَّ ضحكتي كانت قناعًا ثقيلًا، كيف يُعقلُ أن يكونَ مهجورًا وأنا أودعُ فيه قلبي كلَّ شهر؟ وكيف تَصِلُ أموالِي بانتظامٍ، إذا كانَ الموظفون قد غادروا الكراسي منذ سنوات؟

بدأتُ أشكُّ في حواسي لا في الواقع، لعلَّني حين أضعُ الرسالة، يفتحُ لي العدمُ فمه ليبتلعها، أو لعلَّ الغريبَ الذي يُراقبني، يملكُ مفتاحًا لهذا الصمتِ كله.

محيطُ رؤيتي بدأ يتذبذب، وكأنَّني أسكنُ في قصةٍ كُتبت بحبرٍ يختفي بمجرد أن تلمسه الشمس.

كان المقهى يقع في زاويةٍ منسيّة، تفوح منه رائحة الخشب المحروق والقهوة المُرّة،
اختاره آدم بعناية، بعيدًا عن صخب الجامعة، وعن طريق البريد الذي تسلكه نور
عادةً.

جلس آدم قبالتها، يُراقب الطريقة التي تُشبك بها أصابعها حول كوب الخزف الدافئ،
وكأنها تتمسّك بآخر خيطٍ يربطها بالواقع.

كسر آدم الصمت وهو يُحرّك ملعقة ببطء:

- نور، أنتِ تجلسين معي، لكنّ عقلك يطوفُ في مكانٍ آخر، هل ما زلتِ تفكرين في
ذلك المبنى الصامت؟

رفعت نور عينيها، كانت الهالات السوداء تحت جفونها تحكي قصة ليالٍ من السهر
خلف النوافذ:

- آدم، هل جرّبت يوماً أن تشعر بأنّ حياتك كلها مبنية على صُدفة؟ وأنّ هذه الصُدفة قد تختفي بمجرد أن تطرفَ عيناك؟

وضع آدم الملعقة، واتكأ بظهره إلى الكرسي الخشبي الذي أصدر صريراً حزيناً:

- الحياةُ كلها صُدفة يا نور، لكنّ الفرق بيني وبينك هو أنني أستمتعُ باللوحة وهي تُرسم، بينما أنتِ تُريدين معرفة اسم الرّسام ومصدر ألوانه قبل أن ينتهي، اسمعي الفائدة التي سأقولها لك الآن، مجّانية ولا تحتاج لمنحة دراسية: اليقينُ هو مقبرةُ الدهشة، إذا عرفتِ كل شيء، ستفقدن طعم كل شيء.

نظرت إليه نور بشيء من السخرية المريرة:

- سهلٌ عليك قول ذلك يا آدم، أنت تملك فُرشاتك وألوانك، أمّا أنا.. فأنا مشروع مُموّل، هناك شخصٌ يدفع ثمن كُتبي، ثمن ثيابي، وحتى ثمن هذه القهوة التي أشربها الآن، ألا يحقُّ للسجين أن يعرف مَنْ هو سجّانه، حتى لو كان السجن من حرير؟

لم يُجب آدم فوراً، أخرج دفتر رسمه الصغير، وبدأ يخطُ خطوطاً عشوائيةً بدت وكأنّها قضبان حديدية، ثم رسم في وسطها عصفوراً بجناح واحد، قال وهو يُركّز في الرسم:

- تعرفين ما هي مشكلتك الحقيقية؟ أنتِ لا تخافين من المجهول، أنتِ تخافين من الحريّة، تخافين أنه إذا اكتشفتِ أنّ ذلك الرجل غير موجود، أو أنه مجرد وهم، سيتعيّن عليك حينها أن تقودي حياتكِ بنفسك، دون بُوصلة خارجيّة، السلاسل تُعطينا شعوراً بالأمان، لأنها تُخبرنا أين تنتهي حدودنا.

صمتت نور، كانت كلمات آدم تلمسُ خُراج الروح الذي حاولت إخفاءه، هل هي حقاً مُتمسّكة بهذا الغريب لأنها تحتاجه؟ أم لأنّها تخشى المواجهة مع قدرها وحيدة؟

قالت بصوت مخنوق:

- اليوم رأيتُ قفلاً صديئاً على باب البريد، وشعرتُ أنّ هذا القفل ليس على المبنى، بل على حنجرتي.

لم تُولد نور وفي فمها ملعقة من ذهب، بل وُلِدَت وفي رديتها غبار قريةٍ منسيّة على أطراف الجبل، حيث الشمس تُشرق لتُوقظ المُتعبين، لا لتثير الدُّروب.

تذكّرت نور ذلك المساء قبل خمس سنوات، حين كانت تجلس عند قدميّ والدتها في ساحة الدار، التي تفوح برائحة المطر والتراب، كانت الأم بوجهها الذي رسمت فيه السنين خريطة للأوجاع، تهزُّ رأسها بحزن وهي تنظر إلى ابنتها، التي تلتهم الكتب تحت ضوء شمعةٍ تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة.

قالت الأم بصوتٍ مبجوح:

- يا ابنتي، الكتبُ لا تُطعمُ خبزًا في قريةٍ تَأْكُلُ أرواحَ ساكنيها، ابقِ بجانبِي، الأرضُ أحْنُ عليكِ من ورقٍ لا يقرأهُ أحد.

لكن نور كانت تملكُ جوعًا من نوعٍ آخر، لم تكن تجوع للخبز، بل كانت تجوع للمسافة، كانت تريد أن تعرف ماذا يوجد خلف تلك الجبال العالية التي تُحاصرُ أُنْفُسَها.

وفي اللحظة التي كانت فيها الأحلام على وشك الانتحار تحت وطأة الفقر، ظهر
المُغلف الأول.

لم يأت المتبرع على حصانٍ أبيض، بل جاء على شكل ورقةٍ رسمية في يد مُختار
القرية، كان رجلاً غليظاً، لا يعرف من القراءة إلا أسماء المُلّاك، وقف بأبهة مزيفة
ونادى:

- نور ابنة الأرملة، لكِ حظٌ يكسرُ الصخر، هناك فاعل خير قرّر أن يشتري لكِ
مستقبلاً في المدينة الكبيرة، بشرطٍ واحدٍ أغرب من الخيال.

تذكّرت نور كيف ارتعشت يد أمها وهي تلمس الورقة، وكأنها تلمسُ جمرة، الشرط
كان:

- أن تكتبي له رسالة كل شهر، يحكي فيها قلبك ما لا يحكيه لسانك.

بكت الأم في تلك الليلة، ليس فرحاً، بل خوفاً، كانت تقول:

- يا ابنتي، لا أحد يُعطي دون ثمن، مَنْ يشتري كلماتكِ اليوم، سيشتري روحكِ غداً.

لكن نور بغيرور الشباب ويأس الفقراء، لم تسمع إلا صوت القطار الذي سيحملها بعيداً، تركت أمها بقميصها الوحيد المُرَقَّع، ورحلت وهي تحمل في حقيبتها الخشبية القديمة دفاتر فارغة، ووعداً بأن تُصبح نوراً لا يطويه الظلام.

أفاقت نور من ذكرياتها على صوت آدم وهو يطلب فنجان قهوةٍ ثانٍ، نظرت إلى يديها الناعمتين الآن، وقارنتهما بيد أمها التي كانت مُتَشَقَّعة كجذع نخلةٍ قديمة.

شعرت بالخوف، هل هي خائنة لفرها القديم؟ هل المنحة كانت ثمناً لكي تنسَ من أين جاءت؟

التفتت نحو النافذة، ورأت مكتب البريد من بعيد، شعرت أنّ ذلك المبنى المهجور ليس مجرد صندوق رسائل، بل هو حبلُ السُّرّة الوحيد الذي يربطها بتلك القرية، وبذلك الوعد، وبأمّها التي لم ترها منذ عامين، لأنّ الدراسة كانت تأكل كلّ وقتها.

كانت ليلةً باردة، ودعاني آدم إلى مرسمه الذي يفوح برائحة الزيت والتربنتين، كان قد أعدَّ عشاءً بسيطاً، لكنّ نظراته كانت ثقيلة، كأنه يرسم ملامحي في ذاكرته للمرة الأخيرة قبل أن يُغيّرني الشك.

قال وهو يسكب الشاي في كوبين مُغبرين:

- نور، لقد مضت سنوات وأنتِ تدرسين النفس البشرية، فهل سألتِ نفسك يومًا: ماذا ستفعلين بذاك الغريب حين تنتهي سنوات الدراسة؟ هل ستستمرّين في إرسال تقارير حياتكِ لصندوقٍ مهجور؟

نظرتُ إلى اللوحات المُبعثرة في أركان الغرفة، وشعرتُ بالغيرة من حرّيته، هو يملك الخيار، وأنا أملكُ دينًا لا يُسدّد، قُلْتُ بصوتٍ منخفض:

- ربما سأكتبُ له رسالةً أخيرة، أشكره فيها، وأطلبُ منه لقاءً، أريد أن أرى الوجه الذي صنع وجهي يا آدم.

ضحك آدم ضحكةً مريرة، واقترب منّي حتى شعرتُ بأنفاسه:

- وماذا لو كان الوجهُ الذي تبحثين عنه، هو وجهكِ أنتِ في المرأة؟ ماذا لو كان هذا الرجل قد مات، والبنكُ يرسلُ الأموال آليًا، وأنتِ تكتبين لشبح؟

خرجتُ من مرسمه والريخُ تلطمُ وجهي، لم أذهب إلى غرفتي، بل وجدتُ نفسي ودون وعي أسيرُ نحو مكتب البريد، وقفتُ هناك، وفي الظلام رأيتُ شيئاً لم أَلحظه من قبل، كان هناك بصيصُ ضوءٍ خافت، ينبعثُ من تحتِ البابِ الرئيسيِّ الموصدِ بالسَّلاسل.

تجمدتُ في مكاني، كيف يشتعلُ ضوءٌ في مكانٍ يقولُ عنه الجميعُ أنه مات؟

لم أستطع النوم، ذلك الضوءُ الخافت الذي رأيتهُ من تحتِ البابِ ظلَّ يحرقُ جفني.

في الصباح، كانت محاضرةُ الدكتور رفعت تدورُ حول الإدراكِ الحسي، قال جملةً وكأنها صُمِّمت لتهدئة روعي، أو لزيادة جنوني:

- أحياناً يا أبنائي، نرى ما نحتاجُ لرؤيته لكي لا ينهارَ عالمنا، العقلُ يبتدعُ أضواءً في الأماكنِ المظلمة ليُوهمنا أنَّ هناك أحداً ينتظرنا.

رفعتُ يدي ببطء، وشعرتُ أنَّ صوتي يرتجف:

- دكتور، وماذا لو كان الضوءُ حقيقياً، لكنَّ الأبوابَ هي التي ترفضُ أن تفتح؟

نظرَ إليَّ فوقَ نظَّارته، وصمتَ لثوانٍ بدت كأنها دهر:

- حينها يا نور يكونُ السؤال: هل أنتِ مستعدةٌ لكسرِ الباب؟ أم أنكِ تخافين ممّا
ستجدينه في الداخل؟

بعد المحاضرة، لم أذهب إلى المقهى مع آدم، عُدْتُ إلى غرفتي، وأخرجتُ ورقةً
وبدأتُ أكتبُ رسالتي الشهرية المعتادة، لكنّ قلّمي كان يرتجف، لم أعد أكتبُ لمُحسنٍ
مجهول، بل صرْتُ أكتبُ لذلك الضوء الذي رأيته خلف السّلاسل.

كنتُ أعلمُ في أعماقي أنّ سنواتِ دراستي لم تنتهِ بعد، لكنّ صراعي مع الحقيقة قد بدأ
فعلاً، فالمنحةُ التي كانت طوقَ نجاة، بدأت تتحوّلُ إلى قيدٍ يربطني بمبنى مهجور،
يسكنهُ ضوءٌ لا يراه أحدٌ غيري.

« عن الضوء الذي يسكن العدم ».

التاريخ : ليلة اكتمال القمر وتذبذب اليقين.

إلى : سيدي، يا مَنْ يسكن خلف السلاسل.

«مرحباً..»

أكتبُ إليك اليوم وأصابني ترتجف، ليس من برد الشتاء الذي بدأ يقسو، بل من حيرةٍ تنهشُ عقلي.

بالأمس، وقفتُ أمام مكتب البريد في ساعةٍ مُتأخرة، كنتُ وحيدة والمدينة غارقة في صمتٍ مُريب، وفجأة رأيتُ شيئاً زلزَل ثباتي، رأيتُ بصيصَ ضوءٍ ينبعثُ من تحت الباب الموصد بالسلاسل الصَدِئة.

سؤالي لك اليوم يا سيدي، ليس عن المنحة ولا عن دروسي، سؤالي هو: مَنْ الذي يُشعلُ المصابيح في بيوت الموتى؟ هل أنت هناك فعلاً؟ هل تسكنُ خلف تلك الجدران

الشاحبة، وتراقبني وأنا أضغُ رسائلي؟ أم أنَّ هذا الضوء هو مجرد سرابٍ، خلقه عقلي لكي لا يُصدّق أنني أخاطبُ فراغاً؟

يقولُ لي آدمُ أنني أعيشُ في وهمٍ، ويقولُ أستاذي في الجامعة أنَّ الوهم أحياناً يكون ضرورة للبقاء، وأنا الآن عالقةٌ بينهما، أخشى أن أكسرَ السلسلة فأجد خلف الباب (لا شيء)، وأخشى أن أظلَّ هكذا فأفقد عقلي.

أرجوك امنحني إشارة، أيَّ إشارة تُخبرني أنَّ كلماتي لا تذهبُ لتُحرق، بل لتُقرأ».

نور

طويتُ الرسالة ووضعتها في المظروف، وتوجّهتُ نحو زاويةِ المبنى حيثُ يقبعُ الصندوقُ الحديدي، كان الجوُّ ضبابيّاً، ورائحةُ الرطوبةِ تملأُ المكان.

حين اقتربتُ، لم أمدّ يدي فوراً لأضع الرسالة كما أفعل دائماً، وقفتُ أتأملُ القفلَ الغليظَ الذي يلتفُّ حولَ المقبض، كان الصداً يُعطيه تماماً، وكأنَّه لم يُفتح منذ عقود، لم أستطع منع نفسي، اقتربتُ أكثر، ووضعتُ أذني على الخشبِ الباردِ للبَابِ الرئيسي.

في البداية لم أسمع سوى صدى الريح، ثم خُيِّلَ إليَّ أنني سمعتُ صوتَ حفيفِ ورق، وحركةً خفيفةً جداً في الداخل.

تراجعتُ بخوف، وفي تلك اللحظة لمحتُ رجلاً عجوزاً يقفُ بعيداً تحت ظلِ شجرةٍ كينا، لم يكن آدم، بل كان رجلاً يرتدي معطفاً باهتاً وقبعةً تُخفي ملامحه.

تشجعتُ، وبصوتٍ يرتجفُ ناديت:

- عفواً يا سيّد، هل تعرفُ إن كان هذا المكتب ما زال يعمل؟ لقد رأيتُ ضوءاً بالداخل!

توقّف الرجل، لم يلتفت إليّ تمامًا، بل اكتفى بإمالة رأسه قليلاً، وقال بصوتٍ أجشّ
يُشبهُ صوتَ احتكاكِ الحجر:

- المكانُ مغلقٌ منذُ زمنٍ يا ابنتي، الريحُ وحدها هي التي تسكنُ هناك.

قلْتُ بإصرار:

- لكنني أضعُ رسائلي في هذا الصندوق كلّ شهر، وهناك مَنْ يأخذها!

هنا التفتَ الرجلُ ببطء، وفي الضوءِ الشاحبِ رأيتُ عيناً غائرةً، تفيضُ بأسى غريب،
وقال جملةً جعلتَ الدماءَ تتجمّدُ في عروقي:

- ربما مَنْ يأخذها ليس من الأحياء، وربما أنتِ تضعينها في ذاكرةِ المكان لا أكثر،
عودي إلى بيتك، فالحقيقةُ خلفَ هذا البابِ أبردُ من أن يتحمّلها قلبك الصغير.

ومضى، واختفى في الضباب، تاركاً إيّاي واقفةً والمظروفُ في يدي، والصندوقُ يفتحُ
فمه الأسود بانتظارِ قُرْباني الجديد.

رحل الرجل وتركني واقفةً أمام الصندوق، أحملُ رسالتي وكأنها قنبلةٌ موقوتة، لم يكن كلامه كشفًا للسّر، بل كان صبًّا للزيتِ على نارِ قلقي، (أبردُ من أن يتحمّلها قلبك الصغير)، ماذا كان يقصد؟

عُدْتُ إلى غرفتي، لكنني لم أستطع الدراسة، كانت كلماتُ الرجلِ تتصارعُ مع كلماتِ آدم في رأسي.

في اليوم التالي لم أذهب إلى الجامعة، بدأتُ رحلةً من نوعٍ آخر، رحلة البحث عن هويّة ذلك الرجل، توجّهتُ إلى المقاهي القريبة من مكتب البريد، تلك التي يرتادها كبار السن الذين يقضون نهاراتهم في مراقبة المارة.

جلستُ بجانب رجلٍ عجوز يرتدي سترةً صوفيّةً مهترئة، ويضعُ أمامه جريدةً يعودُ تاريخها للأسبوع الماضي، سألتُهُ بصوتٍ خافت بعد أن طلبتُ له كوبًا من الشاي:

- يا عم، ذلك الرجل الذي يرتدي معطفًا باهتًا ويمشي ببطء قرب مكتب البريد القديم، هل تراه دائمًا هنا؟

نظر إليّ العجوز بعينين غائمتين، ثم ابتسم بمرارة:

- يا ابنتي، في هذا الحيّ المعاطفُ الباهتةُ كثيرة، والرجالُ الذين يسكنهم الحنينُ أكثر، لكنّ ذلك المكتب.. مكتب البريد لم يلمس قفله أحدٌ منذ أن توقفت الحربُ القديمة، من تصفيته قد يكون حارسًا للأشباح، أو مجرد تائه يبحثُ عن رسالةٍ لن تصل أبدًا.

عدتُ إلى نقطة الصفر، لكنني الآن أملكُ خيطًا جديدًا: إذا كان الجميعُ يؤكّدُ أن المكتبَ مغلق، فمن الذي يسحبُ رسائلني من قعر الصندوق؟

فتحتُ دفتري، وبدأتُ أرسمُ رسمًا بيانيًا:

الاحتمال الأول : هناك ممرّ سريّ خلف المبنى، سأبحثُ عنه.

الاحتمال الثاني : ساعي البريد يأتي في ساعةٍ لا يراه فيها أحد، سأراقبه.

الاحتمال الثالث وهو الأكثر رعبًا : أنني فقدتُ صوابي.

« صمْتُ الرسائل، وضجيج الحنين ».

« يقولون أنَّ أصدقَ الكلماتِ هي تلكَ التي نعجزُ عن قولها، وأصدقَ الرسائلِ هي التي تظلُّ حبيسةَ الأدراجِ بانتظارِ شجاعةٍ لا تأتي.

منذُ ذلكَ اللقاءِ الباردِ أمامَ بابكِ الموصد، وأنا أشعرُ بأنَّ الكلماتِ قد تختَّرت في محبرتي، كيفَ أكتبُ إليكِ والشكُّ يملأُ الفراغاتِ بينَ حروفي؟ كيفَ أبثُّك شجوني وأنا لا أعرفُ إن كنتَ بشراً يقرأ؟ أم أنكِ مجردُ صدى يسكنُ أروقةَ غيابي؟

قررتُ في لحظةٍ تمرّدٍ صامتة، أن أحبسَ حبري عنك، قُلْتُ في نفسي:

- سأصمتُ هذا الشهر، سأكفُّ عن كوني تلكَ الفتاةَ المُطِيعَةَ التي تُفرغُ قلبها في صندوقٍ حديدي، سأرى إن كان صمتي سيصلُ إليكِ كما كانت تصلُ كلماتي.

مرَّ الأسبوعُ الأولُ كأنَّه دهرٌ، كنتُ أسيرُ في ممرَّاتِ الجامعة، وألمحُ آدمَ من بعيدٍ وهو يُراقبني بنظراته القلقة، كان يرى الشحوبَ في وجهي، لكنه لم يكن يعرفُ أنني أخوضُ حربًا عالميّة داخلَ صدري.

كنتُ أسألُ نفسي في كلِّ ليلة:

- هل سيُلاحظ؟ هل سيفتقدُ تلكَ الأوراقَ التي تحملُ رائحةَ قلقي؟

وفي منتصفِ الشهر، وبينما كنتُ أجلسُ في المكتبةِ المركزيّة، تحتَ تلكَ النوافذِ العاليةِ التي لا ينفذُ منها إلّا ضوءٌ خجول، وجدتُ فوقَ طاولتي مُغلّفًا لم يضعه أحد، لم يكن بريدًا رسميًا، ولم يحمل طابعًا كان مجردَ ورقةٍ مطويّةٍ بعناية، كُتِبَ عليها بخطٌّ يجمعُ بينَ الهيبةِ والرقة:

- الزهورُ لا تنمو في التربةِ الصامته، ونوركِ لا يكتملُ إلّا بمدادِ صدقك، لا تتركي الصندوقَ جائعًا.

تجمّدتُ في مكاني، شعرتُ برعشةٍ تسري في كياني كأنها مسٌّ من نور، نظرتُ حولي بجنون، بحثتُ عن وجهٍ أعرفه، عن آدم، عن ذلك الرجلِ ذي المُعطفِ الباهت، عن أيِّ أحد، لكنَّ المكتبةَ كانت غارقةً في صمتها المعتاد، عُدتُ إلى غرفتي والورقةُ

ترتجفُ بينَ أصابعي، أدركتُ حينها أنني لستُ الوحيدة التي تُراقب، وأنَّ ذلك الممّول
الصامت ليس مجرد ممّولٍ لمستقبلي، بل هو حارسٌ لروحي، يعرفُ متى أصمت،
ومتى أحزن، ومتى أضلُّ الطريق».

« مُنَاجَاةٌ خَلْفَ حُدُودِ الضَّوءِ ..

إِلَى : مَنْ يَسْكُنُ عَتَمَةَ الْوَقْتِ، وَيُضِيءُ لِي الطَّرِيقَ.

سَيِّدِي ..

يَقُولُونَ أَنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْهَا أَنْ تَلْتَقِيَ، سَتَلْتَقِي حَتْمًا وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، فَمَا بِأَلَاكَ
بِقَلْبَيْنِ يَلْتَقِيَانِ كُلَّ شَهْرٍ عَلَى وَرَقٍ؟

أَعْتَذِرُ عَنْ صَمْتِي الَّذِي مَضَى، لَمْ يَكُنْ جَوْدًا، بَلْ كَانَ مُحَاوَلَةً لِلْفَهْمِ، لَكِنَّ تِلْكَ
الْوَرَقَةَ الَّتِي وَجَدْتُهَا عَلَى طَاوِلَتِي أَعَادَتْنِي إِلَيْكَ، أَدْرَكْتُ حِينَهَا أَنَّكَ لَا تَسْكُنُ خَلْفَ
الْجُدُرَانِ الصَّمَاءِ لِمَكْتَبِ الْبَرِيدِ فَحَسَبَ، بَلْ تَسْكُنُ فِي التَّفَاصِيلِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي أَظُنُّ
أَنَّهَا لَا تَهْمُ أَحَدًا غَيْرِي.

أَخْبِرْنِي، هَلِ اللَّوْنُ الْبَاهِتُ فِي مِعْطَفِكَ هُوَ أَثَرُ السَّنِينِ الَّتِي قَضَيْتَهَا وَأَنْتِ تُلْمِئُ شِظَايَا
أَحْلَامِ الْغُرَبَاءِ؟ وَكَيْفَ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَقْرَأَ صَمْتِي قَبْلَ كَلَامِي؟

أَنَا الْيَوْمَ لَا أَشْكُرُكَ عَلَى الْمَالِ، بَلْ أَشْكُرُكَ عَلَى الْوُجُودِ، شُكْرًا لِأَنَّكَ جَعَلْتَ لِهَذَا الْهَبَاءِ
كَيَانًا، وَلِلْمَنْبُودَةِ فِي أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ صَوْتًا يُسْمَعُ، لَسْتُ أَبَالِي إِنْ كَانَ الْعَالَمُ يَرَاكَ
شَبَحًا، فَبِالنِّسْبَةِ لِي أَنْتَ الْحَقِيقَةُ الْوَحِيدَةُ فِي عَالَمٍ مِنَ الْأَفْنَعَةِ».

نور

حينَ خرجتُ من السكَنِ قاصدةً ذلك المكانَ القديم، كانت السماءُ مُلبّدةً بغيومٍ حبلَى بالمطر، لم أكن أمشي، كنتُ أطفو على بحرٍ من التّرقب.

وضعتُ المظروفَ في مكانه المُعتاد، شعرتُ برعشةٍ خفيفةٍ في أطرافي، كأنَّ يدًا خفيفةً لامست يدي داخل فوّهة الصندوق، لم ألتفت خلفي بجنونٍ هذه المرّة، بل أغمضتُ عيني، وتنفّستُ رائحةَ المطرِ المُمتزجةَ برائحةِ الصّدأ.

كان آدم ينتظرني عند ناصية الشارع، كان يضعُ يده في جيبَي سترَةٍ داكنة، ونظراته تُلاحقُ حركةَ يدي، قال لي بصوتٍ هادئٍ حين اقتربتُ منه:

- نور، لماذا تبدين وكأنّك تضعين صلاتك في ذلك الصندوق، لا مجرد رسائل؟

توقّفتُ ونظرتُ إلى الأفقِ البعيد، حيثُ بدأتُ خيوطُ الضّبابِ تبتلعُ قممَ المباني:

- لأنّ الصلاةَ يا آدم هي حديثٌ مع غائبٍ نؤمنُ بوجوده، وهذا الغريبُ صارَ محرابي الوحيد.

هزَّ رأسه بأسى، ومَشِيَ بجانبِي بصمت، في تلك اللحظة مرَّ بجانبنا رجلٌ يحملُ مظلةً سوداء، كان يمشي ببطءٍ شديد، وبدا ظلُّه طويلاً جداً تحت ضوءِ المصباحِ الباهت، شعرتُ بقلبي يقفز، لكنني لم أنطق بكلمة.

تعلَّمتُ أنَّ بعضَ الغيابِ أجملُ من الحضور، وأنَّ صاحبَ ذلك المعطف الذي يُراقبني من بعيد، يمنحني من القوةِ بصمتهِ ما لا تمنحهُ لي كلُّ كلماتِ البشرِ الصاخبة.

عُدْتُ إلى غرفتي، أحملُ تلك الورقةَ الصغيرةَ كأنني أحملُ قبساً من نار، وضعتها فوق مكتبي، وبدأتُ أتأملُ الخط، كان خطاً مُترنِّباً، مائلاً قليلاً نحو اليمين، كأنَّ الحروفَ تسندُ بعضها البعض من تعبِ السنين.

لم يكن خطُّ موظفِ بنك، ولا خطُّ آلةِ صمَّاء، كان خطُّ إنسانٍ يملكُ في جعبتهِ الكثير من الحكايات.

سألتُ نفسي :

- كيف عرفَ أنني صممتُ؟ وكيف عرفَ مكاني في المكتبة؟

نظرتُ في المرأة، ولأول مرة منذ سنوات لم أرَ نور الطالبة المتفوّقة، بل رأيتُ الفتاة التي تخافُ أن يكتشفَ أحدٌ ضعفها، شعرتُ بالخطر، فالمُراقبةُ لم تعد ماديّة فحسب، بل صارت مُراقبةً للروح.

في المساء ذهبتُ إلى مرسوم آدم، كنتُ أحتاجُ لأن أرى ملامحًا بشريّة لا تخفي شيئًا خلفها، وجدتهُ يخلطُ اللون الرمادي بلمسةٍ من الأزرق الباهت، تسمّرتُ في مكاني، فذلك اللون هو تمامًا لونُ المعطف الذي رأيتهُ يتلاشى في الضباب.

قُلْتُ بصوتٍ مخنوق:

- آدم، لماذا اخترتَ هذا اللون تحديدًا؟

نظرَ إليّ بابتسامته العفوية التي بدأت تفقدُ سحرها أمام غموضي:

- هذا لونُ المدينة حين تخفي أسرارها يا نور، لونُ الأشياء التي نراها ولا نمسكها،

لماذا تبدين وكأنك رأيتَ شيئًا؟

لم أخبره عن ورقة المكتبة، شعرتُ أنّ إخبار آدم سيجعلُ السحرَ يتبخّر، أو سيجعله يسخرُ من خرافاتي، وبدلاً من ذلك، جلستُ أمام نافذته وأخرجتُ دفترتي، لم أكتب رسالة، بل بدأتُ أرسمُ خريطة لخطواتي منذ لحظة دخولي للمكتبة، وحتى جلوسي على المقعد.

أردتُ أن أحصرَ الأشخاص الذين كانوا حولي: كان هناك العجوزُ الذي يرتدي قُبعة بُنية، والشابُّ الذي يضعُ نظارات سميكة، والمرأةُ التي كانت تقرأُ في رُكنٍ بعيد، أيّهم أنتَ يا سيدي؟ ومنَ منهم يملكُ ذلك المعطف الباهت الذي يسكنُ خيالي؟

قرّرتُ أن أضعَ فحاً صغيراً في رسالتي القادمة، لن تكون رسالة امتنان، بل ستكون رسالة تسألُ عن اللون، سأرى إن كان سيفهمُ شفرتي، أم أنّ الضوء الذي يُحرّكه هو ضوءٌ لا يرى الألوان.

في ذلك الصباح، قرّرتُ أن أهجرَ كُتبي، وأن أتركَ قلّمي ينامُ في درجِ الطاولة، استيقظتُ والشمسُ تداعبُ وجهي بنعومةٍ لم يعهدها شتاءُ المدينة، خلعتُ ثوبَ نور المتفوقة، وارتديتُ سترَةً صوفيّة قديمة، وقرّرتُ أن أمشي في اتجاهٍ لا يؤدّي إلى الجامعة، ولا إلى مكتب البريد.

ناديتُ آدم من تحت نافذته قبل أن يصحو:

- آدم، اترك فرشاتك اليوم، أريدُ أن أرى المدينةَ بعينِ شخصٍ لا يملكُ قضية يُدافع عنها.

خرج إليّ بدهشة طفلٍ وجدَ لعبتهُ المفقودة، مشينا نحو سوق الزهور القديم، هناك حيثُ
الرائحةُ تسبقُ الرؤية، والوجوهُ لا تحملُ أقنعةً أكاديميّة، بائعو الورد يصرخون بأسماءِ
زهورهم كأنهم ينادون على حبيباتهم.

قال آدم وهو يشتري غصنًا من الياسمين البري:

- انظري يا نور، هؤلاء الناسُ لا يعرفون سيكولوجيّة الحشود، لكنهم يعرفون كيف
يبتسمون للشمسِ كل صباح، الحياةُ ليست في الكتب، الحياةُ في هذه الفوضى
الجميلة.

جلسنا على رصيفٍ حجريٍّ قديم، نأكلُ خبزًا ساخنًا تقوُحُ منه رائحةُ الحطب، شعرتُ
بخفةٍ غريبة، كأنّ الجاذبيةَ قد رفعت يدها عن كتفي، لثلاثِ ساعاتٍ كاملة نسيْتُ أنني
مدينةٌ لأحد، نسيْتُ أنّ هناك رجالًا في الظلّ يدفعُ ثمنَ أحلامي.

ضحكتُ من قلبي حين طاردت قطعةً مُشاكسةً أطرافَ ثوبي، كانت ضحكةً حقيقية، لا
صدى لها في رسالة، ولا وصفَ لها في نظرية.

قُلْتُ لِآدَمَ وَأَنَا أُغْمِضُ عَيْنَيَّ مُسْتَسْلِمَةً لِلدَفْعِ :

- أتعرف يا آدم؟ أحيانًا أشعرُ أَنَّ أعظمَ نجاحٍ يُمكنُ أن يُحقِّقه الإنسان، هو أن ينسَ اسمَهُ لعدةِ ساعات، ويكونُ مجردَ وجودٍ يشعُرُ بالبردِ والدفعِ والجوع.

نظَرَ إِلَيَّ آدَمُ بِنَظَرٍ صَافِيَةٍ، وَخَالِيَةٍ مِنْ تَعْقِيدَاتِهِ الْفَنِيَّةِ:

- أخيرًا لمحتُ نورَ التي خلفَ الحروف، تلكَ الفتاةَ التي لا تحتاجُ إلى ضوءٍ مجهولٍ لتُشرقَ، لأنَّ النورَ يسكنُ في مسامِ جلدِها.

عُدْنَا فِي الْمَسَاءِ، وَالْمَدِينَةُ بَدَأَتْ تَكْتَسِي بِلَوْنِهَا الرَّمَادِيِّ الْمُعْتَادِ، لَكِنِّي لَمْ أَعِدْ لِعَرَفَتِي مَبَاشَرَةً، تَوَقَّعْتُ عِنْدَ بَائِعِ الْكُتُبِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عَلَى نَاصِيَةِ الشَّارِعِ، وَاشْتَرَيْتُ دِيوَانَ شَعْرِ قَدِيمًا، لَيْسَ لِأَدْرَسِهِ، بَلْ لِأَقْرَأَهُ لِقَلْبِي.

فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، نِمْتُ دُونَ أَنْ أَفْكَرَ فِي الرِّسَالَةِ الْقَادِمَةِ، نِمْتُ وَأَنَا أَشْمُ رَائِحَةَ الْيَاسْمِينِ الْبَرِيِّ فِي كَفِّي، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الْحَيَاةَ أَوْسَعُ بِكَثِيرٍ مِنْ ظَرْفِ وَرْقِي، وَأَنَّ كِرَامَتِي الَّتِي جُرِّحَتْ فِي حِفْلِ التَّكْرِيمِ، قَدْ التَّامَتْ قَلِيلًا بِلَمْسَةِ خَبِزٍ سَاخِنٍ وَضَحْكَةٍ عَابِرَةٍ.

يقولون أنّ الوقتَ كَفيلاً بالشفاء، لكنهم يجهلون أنّ بعضَ الندوبِ لا تُشفى، بل تتعلّم كيفَ تختبئ خلفَ ابتساماتنا الهادئة.

الفقدُ يا صديقي ليسَ أن يرحلَ أحدهم عن حياتك، بل أن يرحلَ وبُصُحبتهِ نسختك التي كنتَ تُحبها، أن تلتفتَ في منتصفِ الحديثِ لتُخبرهُ أمراً تافهاً، فتصطدمَ ببرودةِ الفراغِ الذي تركهُ خلفه، تلكَ هي اللحظةُ التي يموتُ فيها المرءُ مراراً، حينَ يدركُ أنّ صوتهُ صارَ صدى في غرفةٍ مهجورة.

نحنُ لا نحزنُ على الراحلينَ فحسب، نحنُ نحزنُ على أنفسنا التي تآكلت وهي تنتظرُ وقعَ أقدامهم على عتبةِ الباب، نحزنُ على الكلماتِ التي حبسناها في حناجرنا بانتظارِ فرصةٍ أفضل، فصارت اليومَ غصّةً تأبى أن تُبتلع.

أصعبُ أنواعِ الفراقِ هو ذلكَ الذي لا يسبقهُ عِناقٌ أخير، ذلكَ الذي يحدثُ فجأةً في منتصفِ جملةٍ لم تكتمل، فتظلُّ الكلماتُ مُعلقةً في الهواء، ويظلُّ القلبُ عالقاً في الأمس، يرفضُ المُضيّ نحو الغدِ لأنهُ يخافُ أن ينسَ ملامحَ مَنْ كانَ يوماً هو الغد.

يقولون أننا لا ندرك قيمة الجدران إلا حينما تشرع النوافذ على عواصف لا نملك
تجاهها دروعاً.

بعد ذلك اليوم الذي قضيته مع آدم، شعرتُ بذنبٍ خفيٍّ، كأنني خنتُ ذلك الصمت
الذي يمولُ أحلامي، عُدتُ إلى غرفتي، وفي عتمة الليل أخرجتُ الورقة التي وجدتها
في المكتبة: (لا تتركي الصندوق جائعاً).

نظرتُ إليها طويلاً، هل هو عتاب؟ أم هو توسّلٌ مُغلّفٌ بسُلطة؟

لم أعد أراه ذلك القويّ الذي يمنحُ بيده العُليا، بل بدأتُ أراه وحيداً، يقتاتُ على حروفي
ليعيشَ حياةً لا يملكها.

فتحتُ محبرتي، وقرّرتُ أن أكتبَ له رسالةً لا تُشبه سابقتها، رسالة ليس فيها شُكراً،
بل فيها: أين أنت؟

» سيدي..

لقد خرجتُ اليوم إلى الشمس، ورأيتُ المدينة دون أن أنظرَ إليها من خلال ثقبِ إبرة رسائلِك، رأيتُ الزهورَ والقُطُطَ والبشرَ، وشعرتُ للمرة الأولى أنني لا أحتاجُ إلى نصِّ مُسبقٍ لكي أعيش.

سؤالي لك اليوم ليس عن مالي، بل عنك أنت، لماذا تُصرُّ على البقاء خلفَ البابِ المُوصد؟ هل تخافُ أن نلتقي فتكتشفَ أنني لستُ النور الذي تخيلته؟ أم تخافُ أن أكتشفَ أنا أنَّ معطفك الباهت ليس سوى سترةٍ من غبارِ الأوهام؟

أنا لم أعد جائعةً لمالك يا سيدي، أنا جائعةٌ لحقيقةِ ألمسها بيدي، لا لخطِ أقرأه بعيني.»

طويتُ الرسالة، لكنني لم أضعها في المظروف فوراً، بقيتُ أتأملها، شعرتُ أنَّ هذه الكلمات قد تكون هي المقص الذي سيقطعُ الحبلَ الحريري بيننا.

في صباح الغد، توجَّهتُ نحو الصندوق الحديدي، كانت الريحُ تعبثُ بأوراقِ الشجرِ اليابسة، وكان الصمتُ حول المبنى يبدو لي هذه المرة ثقيلًا بشكلٍ غير مُريح،

وضعتُ الرسالة، وحين هممتُ بالرحيل، سمعتُ صوتَ سعالٍ خفيفٍ ينبعثُ من خلفِ البابِ الخشبي العتيق!

تسمرتُ في مكاني، كان سعالًا آدميًا، مُتعبًا، وبعيدًا كأنه آتٍ من بُئر.

لم أهرب هذه المرة، اقتربتُ ووضعتُ كَفِّي على الخشبِ البارد، وقلْتُ بصوتٍ بالكاد يُسمع:

– أنتَ هناك، أليس كذلك؟

لم يأتِ ردٌّ، لكنَّ الضوءَ الخافت الذي رأيتهُ سابقًا من تحت العتبة.. انطفأ فجأة!

وقفتُ هناك، يدي لا تزالُ عالقةً على الخشبِ البارد، وأُذني تستجدي صوتًا آخر بعد ذلك السعال المُنْهَك، لكنَّ انطفاءَ الضوءِ المُفاجئ كان صفعًا من العتمة، شعرتُ وكأنَّ المبنى قد أغمضَ عينيه في وجهي، رافضًا أن يمنحني حتى اعترافًا بوجوده.

بدأتُ أدورُ حولَ زوايا المبنى بجنونٍ صامت، كنتُ أبحثُ عن ثقبٍ، عن نافذةٍ نَسِي الزمنُ إغلاقها، عن شقٍّ في الجدارِ أحشُرُ فيه فضولي، كانت أصابعي تلامسُ الحجرَ القاسي، وقلبي يقرعُ صدري كطبلٍ في ساحةٍ معركة، وفي الزاوية الخلفية، حيثُ ينمو اللبلابُ المتوحشُ ليُغطي عوراتِ الجدران، لمحتُ نافذةً صغيرةً يرتفعُ مستواها عن

الأرض قليلاً، زجاجها مُغطى بطبقاتٍ من غبارِ العقود، لكنَّ أحد أطرافها كان مكسوراً.

سحبْتُ نفساً عميقاً، وحينَ هممتُ برفعِ جسدي لأسترقَ النظر، شعرتُ بقبضةٍ قويةٍ تمسكُ بذراعي، وتجذبني للخلفِ بقوةٍ كادت تسقطني أرضاً.

- كفى يا نور! إلى متى ستستمرّين في مطاردةِ الأشباح؟

كان آدم، ملامحهُ التي كانت دائماً مُسترخية كلوحةٍ مائيّة، كانت الآن مُتشجّة وغازبة، عيناؤه تشتعلانِ بحدّةٍ لم أرها فيهما قط.

- آدم، لقد سمعتُ صوتاً! لقد انطفأ الضوء حين تكلمتُ، هو هناك!

صرخَ بي، وصوته يرتجفُ بغضبٍ ممزوجٍ بالخوف:

- ومن يهتم! من يهتم إن كان هناك شبحٌ أو مجنونٌ يسكنُ في حُطام! أنسيتِ مَنْ

أنتِ؟ أنسيتِ الجامعة؟ امتحاناتكِ النهائية بعدَ أيام، ومستقبلكِ الذي يدفعه هذا الغريبُ

ينهار، لأنكِ تقضينَ ليلاليكِ في مراقبةِ الجدران الصّماء!

هزّني من كتفيّ بحدّة، وكأنه يُحاولُ إيقاظي من غيبوبة:

- أنتِ تدرسينَ علم النفسِ يا نور، ألا ترينَ أنكِ أصبحتِ الحالةَ الأكثرَ تعقيدًا؟ هذا الهوسُ سيقتلكِ، هل تُريدِينَ أن تضيعِ سنواتَ تعبكِ وتعبِ أمكِ لأجلِ سرابٍ خلفَ قفْلِ صَدِي؟ عودي إلى وِعيكِ، عودي إلى الكتبِ، فالورقُ الذي بينَ يديكِ في الجامعةِ هو الحقيقةُ الوحيدةُ، وما عدا ذلك هو محضُ خيالٍ مريضٍ!

صمتُ، لم تكنِ حدّتهُ هي ما آلمني، بل صدقُ كلامه، نظرتُ إلى يديّ المُتسخّتينِ بغبارِ الجدرانِ، ثم إلى المبنى الذي بدا في تلكِ اللحظة، وكأنَّه يسخرُ مِنِّي بصمتهِ الطويلِ.

سحبني آدم من يدي بعيدًا عن ذلك الشارع ولم ألتفت خلفي، لكنني كنتُ أشعرُ بعينينِ تُراقبانِ رحيلي من خلفِ ذلك الزجاجِ المُغْبِشِ، عينانِ باهتتانِ كألوانِ معطفٍ عتيقٍ. يقولون أنَّ أفسى أنواعِ الرحيلِ، هو ذلك الذي يحدثُ وأنتما لا تزالانِ تجلسانِ على الطاولةِ ذاتها، حين تُدركُ أنَّ الكلماتِ التي كانتِ جسرًا بينكما، صارتِ الآنِ جدارًا.

بدأ الأمرُ بموعِدٍ لم يحضرهُ آدم، كان قد وعدني بأن نذهبَ إلى معرضٍ للفنونِ المُعاصرة، لكي يُخرجني من عُزْلتي، انتظرتهُ ساعتين تحت المطر، كان بردي ليس من الجو، بل من فكرةٍ أنَّ آدم بدأ يملُّ من حطامي، وحين جاء في المساء لم يعتذر، نظر إلى عينيّ وقال ببرودٍ غريب:

- لم أجد في ألواني ما يكفي لأرسم ابتسامة زائفة معكِ يا نور، أنتِ لم تعودِي هنا،
أنتِ هناك، خلف ذلك القفل الصديء.

كان هذا أوّل شرخ في عهدنا، ثم توالى الخيبات.

كنّا قد تعاهدنا في بداية السنة ألا تُشرق الشمس على خصامِ بيننا، لكننا بتنا نقضي
الليالي في صمتٍ ثَقِيل، هو يرسمُ الحياة وأنا أُحلّل الموت.

في ليلةٍ باردة، أخرجتُ له رسالةً كنتُ قد كتبتها لصاحب المعطف ولم أرسلها بعد،
أردتُ أن يُشاركني حيرتي، أن يلمسَ وجعي، لكنه دفع الورقة بيده وكأنها جمرّة:

- ألم نَنقُ يا نور؟ قُلْتُ لي أنّكِ ستَتوقّفين عن هذا الهوس بمجرد بدء الامتحانات، لقد
نقضتِ العهد، أنتِ تبيعينَ واقعنا الجميل مقابل وهمٍ ميّت.

قُلْتُ له والدَّمَعُ يحرقُ حنجرتي:

- ليس وهمًا يا آدم، إنّهُ المَدِينُ الذي يبحثُ عن دائنّه لكي يرتاح!

هنا وقف آدم، وجمع ألوانه بحدّةٍ أحدثت ضجيجًا في قلبي، نظر إليّ للمرة الأخيرة،
وقال جملةً كانت هي رصاصة الرحمة على علاقتنا:

- الدائن الحقيقي هو أنا يا نور، أنا الذي أعطيتك قلبي ولم أطلب منك رسالة واحدة،
بينما أعطيت ذلك الشبح روحك لأنه أعطاك ورقًا ملونًا.. وداعًا، اذهبي إليه، لعلَّ
المعطف الباهت يمنحك الدفء الذي لم أجده أنا معك.

تركني وغادر، لم يُغلق الباب خلفه، بل تركه مشرّعًا للريح، وكأنه يُخبرني أنّ طريقي
وطريقه صارا مسارين متوازيين، لا يلتقيان إلا في الذكرى.

يقولون أنّ الضربة التي لا تقتلك تزيدك قوة، لكنهم لم يخبرونا أنها تتركك مشوّهاً.

في الليلة التي غادر فيها آدم لم أبك، جلستُ في منتصف الغرفة، أراقبُ الفراغ الذي
تركه خلفه، كان مرسمة الصغير في زاوية غرفتي يبدو كقبرٍ مفتوح: بقايا ألوانه، رائحة
الكتان، وذاك الكوب الذي شربنا فيه الشاي الأخير ونحنُ نتبادلُ وعودًا لم نصمد
أمامها.

مددتُ يدي لألمسَ فرشاة نسيها خلفه، فشعرتُ بكهرباءٍ من الوجد تسري في أوصالي،
هل فعلتُ ذلك حقًا؟ هل ضحيّ بالرجل الذي كان يرى لمعة عيني، لأجلِ شبحٍ لا
يرى إلا كلماتي؟

في الصباح ذهبتُ إلى الجامعة، كان المشي في الممراتِ أشبهَ بالمشي على مسامير،
كلُّ زاويةٍ تُذكّرني به: هنا ضحكنا، وهنا تشاجرنا، وهنا وعدني بأن يرسمَ وجهي حين
أُتخرّج.

رأيتُهُ من بعيد، كان يقفُ مع زملائه، يضحكُ ضحكةً بدت لي مُفتعلة وقاسية، وحين
التقتُ أعينا لثانيةٍ واحدة، لم أرَ فيها غضبًا، بل رأيتُ ما هو أسوأ: رأيتُ الغربة.

لقد قتلنا الألفة يا سيدي، صاحب المعطفِ الباهت، هل أنتَ سعيدٌ الآن؟

عُدْتُ إلى غرفتي، وكان الصداغُ يفتكُ برأسي، حاولتُ أن أفتحَ كتاب الاضطرابات
النفسية، لكنَّ الكلماتِ كانت تتقاذز أمامي كالحشرات، أغلقتُ الكتابَ بصرخةٍ مكتومة،
وألقيتُ به نحو الجدار.

وقفتُ أمام المراة، وبدأتُ أتحدّثُ وجهي، كنتُ شاحبة، غائرة العينين، شعري الذي
كان آدم يحبُّ ملمسه صارَ باهتًا كمعطفك، أدركتُ حينها أنني أتحوّلُ إليك، أنا ببطءٍ
أُتلاشى، أتحوّلُ إلى كائنٍ يسكنُ الورق، يقتاتُ على الانتظار، وينسى كيف يعيشُ
تحت الشمس.

هذا هو الألم الواضح يا سيدي:

أن تتجحي في دراستك بامتياز، وتفشلي في الإبقاء على إنسانٍ واحدٍ يُحبّك.

أن تملكي ثمنَ طعامك وكُتُبك، ولا تملكي يدًا تمسكيناها حين يطبقُ الليلُ عليكِ
بجناحيه.

أنا الآن وحيدةٌ تمامًا، آدمٌ غادر، وأمي بعيدة، وأنت.. أنت مجرد قفلٍ صدي لا
يُجيب.

« الانتحار الأدبي ».

يقولون أنَّ الكتابة فعلُ نِجاة، لكنني اليوم أشعرُ أنَّها حبلُ مشنقة.

جلستُ على الأرض، وسندتُ ظهري إلى السرير البارد، لم يعد في الغرفة ألوان، منذُ أن سحب آدمُ حقييته وغادر، سحبَ معه الضوء أيضًا، تركتُ كُتبي مفتوحةً على فصولِ الاكتئابِ الحاد، وكأَنني أقرأ ملامحَ وجهي في المرآة لا مادةً دراسية.

أمسكتُ ورقةً، لكنني لم أكتبَ مرحبًا، لم يعد هناك ما يُرحَّبُ به في هذا الخراب:

«إلى سيّدي الذي لم أُرهِ، والذي بسببه لم أعد أرى أحدًا، هذه هي رسالتي الأخيرة.

لقد منحتني المنحة، لكنك سلبتني الحياة، لقد جعلتني طالبة متفوقة، لكنك جعلتني امرأة وحيدة، اليوم خسرتُ آدم، خسرتُ الرجلَ الوحيد الذي كان يلمسُ يدي فيرتجفُ كوني، لأجلِ شبحِ أطاردهُ في أزقة الغيب.

أتدري ما هو الوجعُ الحقيقي؟

أنني لا أستطيع كرهك، لأنني مَدِينَةٌ لَكَ بِكُلِّ حَرْفٍ كَتَبْتَهُ، وبِكُلِّ رَغِيفٍ خَبَزٍ أَكَلْتَهُ، وهذا هو الذُّلُّ الرقيق الذي مارسْتُهُ عَلَيَّ لسنوات، لقد بَنَيْتَ لي قَصْرًا من ورق، وحين سكَنْتُهُ، اكتشَفْتُ أَنَّ أَبْوَابه لا تُفْتَحُ، ونوافذُهُ لا تَطُلُ إِلَّا على صَمْتِكَ.

خُذْ مالَكَ، وَخُذْ نَجَاحِي، وَأَعِدْ لي آدَمَ، أَعِدْ لي جَهْلِي القديم وقريتي البعيدة، أَعِدْ لي نور التي كانت تضحك للريح دون أن تسأل عن مصدرها.

أنا أعلنُ اعتزالي للكتابة، لن أُطْعِمَ صندوقَكَ الجائعَ بعد اليوم بحطامِ قلبي، سأتركُ الصمْتَ يَأْكُلنا معًا».

طويْتُ الورقةَ بقسوة، ووضعتها في المظروف، لم أضع عليها عِطْرًا، بل تركتُ عليها أثرَ غبارِ غرفتي المهجورة.

مشيتُ نحو مكتبِ البريدِ في منتصفِ الليل، كانت الشوارعُ خاليةً إِلَّا من القُطْطِ المُشَرَّدَةِ، وظلِّي الذي بدا لي طويلًا ومكسورًا، وقفتُ أمامَ الصندوقِ الحديدي، وبدلًا من أن أُلْقِيَ الرسالةَ بوقار، دفعتها بيدي داخلَ الفتحةِ السوداء كَأَنِّي أَتَخَلَّصُ من جثَّة.

نظرتُ نحو البابِ المُوصد، وبصوتٍ مخنوقٍ بالبكاء صرختُ:

- لقد انتهى كل شيء، هل تسمعي؟ لقد خسرته بسببك، اخرج من عمتك اللينة
وواجهني!

لم يأت ردّ سوى صدى صوتي الذي عاد إليّ باهتًا.

عُدْتُ إلى غرفتي، وألقيتُ بنفسي على السريرِ بملابسي المُبتَلّة، نِمْتُ نومَ الغرقى،
وحين استيقظتُ في الصباح لم أجد رسالةً تحتَ الباب، ولم أسمع سعالًا، وجدتُ فقط
فراغًا مُخيفًا، يُخبرني أنني صِرْتُ حرّةً جدًّا لدرجة الموت.

يقولون أنّ أصعبَ أنواعِ الصيامِ ليسَ عنِ الطعام، بل هو الصيامُ عمّن نُحب، وعمّن
أدمنّا الحديثَ إليهم في عتمةِ الليل.

قرّرتُ أن أعتزلَ قلبي، وضعتُ مُحبرتي في زاويةٍ مهجورةٍ من خزانتي، وقُلْتُ لنفسي:

- نور، أنتِ الآن طالبةٌ علمِ نفس، والمنطقُ يقولُ أنّ هذا الغريبَ قد أدّى دَوْرَهُ في
حياتك، وعليكَ أن تُكملي الطريقَ وحدك، لكنَّ المنطقَ يا سيّدي لا يصمّدُ طويلًا أمامَ
وحشةِ العُرفِ الباردة.

كان آدم يمرُّ بي في ممراتِ الكليةِ كأنه غريبٌ يخشى العدو، لم نعد نتقاسمُ شطائرَ الصباح، ولا نتبادلُ النظراتِ التي كانت تقولُ كلَّ شيءٍ دونَ كلام، رأيتُه يومًا جالسًا في الحديقةِ الخلفية، يرسمُ وجهًا لم أتعرفَ عليه، كان وجهًا يفيضُ بالسَّكينة، عكسَ وجهي الذي صارَ خارطةً للقلق.

اقتربتُ منه بخطواتٍ مُتعثِّرة، وقلْتُ بصوتٍ خافت:

- آدم، هل ماتَ الكلامُ بيننا لهذه الدرجة؟

نظرَ إليَّ ولم يترك ريشته، كانت عيناه تحكيانِ قصةَ خيبةٍ لا تُرمَم:

- الكلامُ لم يمت يا نور، لكنَّ المعنى هو الذي فقِد، كيفَ أحاورُ امرأةً تضعُ أذنها

على جدرانِ مبنى مهجور، وتصمُّ أذنيها عن دقاتِ قلبي التي كانت تُناديها كلَّ يوم؟

أريدُ أن أعتذر، لكنَّ كبريائي -الذي استمددته من كرمك- يمنعني.

عُدْتُ لكتبي، وبدأتُ أدرسُ التعلُّق المرضي، قرأتُ كيفَ يلتصقُ الضَّحية بجالده،

وكيفَ يعشقُ السجينُ قضاياه.

بكيْتُ فوقَ الصفحةِ السادسةِ والأربعينِ، لأنَّني أدركْتُ أنني أقرأ تاريخي الشخصي معك.

أنا الآن أصومُ عن الكتابةِ إليك، لكنني أفطرُ كلَّ مساءٍ على تخيلِ وجهك، هل أنتَ ذلك الأستاذُ الذي يُراقبُ قاعةَ الامتحانِ بصرامة؟

أم أنتَ ذلك العجوزُ الذي يجلسُ على الرصيفِ ويبعُ الصحفَ القديمة؟

لقد بدأَ التعبُ ينالُ مني، والكتبُ التي كانت ملجئي، صارت سجنًا آخر، الكلُّ يتحدثُ عن المستقبل بعد التَّخرج، وأنا أرتعدُ خوفًا، لأنَّ التَّخرجَ يعني أنني لن أملكُ سببًا واحدًا لأكتبَ لك، ولن تملكُ سببًا واحدًا لتُبقيني في مداركك.

سيدي، أنا أذاكرُ دروسي بجدٍّ، ليس لأنجح، بل لكي أوْجَلَ لحظةَ الوداعِ الأخير.

يقولون أنَّ المالَ لا يصنعُ السعادة، لكنهم لم يُخبرونا أنَّ غيابَهُ المفاجئ قد يكسرُ الظهرَ، ويجعلُ الكرامةَ ثوبًا رقيقًا يُمزقه أولُ هبوبٍ للريح.

كان ذلك الصباح يحمل رائحة النهاية، وضعتُ وشاحي الصوفي حول عنقي،
وتوجّهتُ نحو البنك بخطواتٍ تملؤها الثقة، كنتُ أحتاجُ لتسديدِ رسومِ السنة الأخيرة،
وشراءِ تلك المراجعِ الضخمة التي لا ترحمُ جيوبَ الغرباء، كنتُ أظنُّ أنَّ العهد لا يزالُ
قائمًا، وأنَّ يدك الخفية ستظلُّ تمتدُّ لي بالدفعِ كلما اقتربَ الشتاء.

وقفتُ أمامَ الآلةِ الصّماء، أدخلتُ بطاقتي البلاستيكية، تلك التي كانت مفتاحي
السّحري لسنواتٍ من الطمأنينة، ضغطتُ الأرقامَ التي أحفظها كاسمي، وانتظرتُ
صوتَ العدِّ الميكانيكي الذي يُشبهُ نبضَ قلبٍ صناعي، لكنَّ الصمتَ طال، ظهرت
على الشاشة كلماتٌ باردة، حادّة، كأنها نصلٌ سكّين:

- عفوّاً، رصيدك لا يكفي لإتمامِ العملية، الرصيدُ الحالي: ٠٠٠٠٠.

تجمّدتُ في مكاني، أعدتُ المحاولةَ مرةً، واثننتين، وعشرًا، كنتُ أضربُ الأزرارَ
بجنون، كأنتني أتوسّلُ للآلة أن تكذب، أن تُعطيني ولو درهماً واحدًا يُثبتُ أنني لا أزالُ
موجودة في ذاكرتك، لكنَّ الصفرَ ظلَّ صامدًا، صفرٌ دائريٌّ ومُخيف، كأنه فوهةٌ بُندقيةٍ
موجّهةٌ نحو صدري.

أدركتُ في تلك اللحظة بشاعة حقيقتي: أنا لستُ نور المُبدعة، ولا الطالبة المتفوقة،
أنا مجرد رقم في دفترِكَ، وحين قرّرتُ أن تشطبني، تلاشت حياتي بضغطة زر.

خرجتُ من البنك، وكانت المدينة تبدو لي للمرة الأولى غابة من الأسمنت لا ترحم، لم
أكن أملكُ ثمنَ تذكرة الحافلة للعودة إلى غرفتي، مشيتُ والدموعُ تحرقُ وجنتي، ليس
لأنني جائعة، بل لأنني شعرتُ باليتم المادّي، لقد فطمتني عن كرمك فجأة، ودون
سابقٍ إنذار.

هل هو عقابٌ لأنني صمتُ؟ أم هو تذكيرٌ لي بحجمي الحقيقي؟

وصلتُ إلى مبنى البريد القديم، وقفتُ أمام الصندوق الحديدي، ولم يكن بيدي رسالة،
كنتُ أحملُ فقط خيبة أملٍ تسعُ العالم، صرختُ في داخلي:

- لماذا الآن؟ في السنة الأخيرة؟ هل تريدُ أن تُخرجني من جنتك وأنا على أعتابِ
النجاة؟

في تلك اللحظة رأيتُ آدم من بعيد، كان يُراقبني بصمتٍ من الجانب الآخر للشارع، لم
يأت ليؤاسيني، ولم يسخر منّي، كان ينظرُ إليّ وكأنني لوحةً فنيّة عنوانها: سقوطُ
الرّهان.

عُدْتُ لغرفتي وأغلقْتُ الباب، نظرتُ لكتّبي، لثيابي، لأقلامي، كلها كانت ملكًا لك،
شعرتُ أنني عارية تمامًا، وأنَّ كلَّ ما حقّقته كان دَيْنًا ثَقِيلًا، واليوم جاء وقتُ السّدادِ
بالذّل.

عُدْتُ في تمامِ العاشرةِ ليلاً، رائحةُ الصابونِ الرخيصِ تلتصقُ بجلدي، وأصابعي
متورّمةٌ من أثرِ العملِ في قبوِ المكتبةِ المُترَبِّ، لم أكن نورَ الشاعرة، كنتُ مجردَ آلةٍ
بشريّةٍ تحاولُ انتزاعَ لُقمةٍ عيشها من بينِ مخالِبِ الحاجة، وعند العتبة رأيتُها، المُغلَفُ
الأبيضُ المألوف، ينامُ بهدوءٍ كأنه لم يفعل شيئاً، كأنه لم يتركني للجوع والخوفِ قبلَ
أيام.

كانت العادةُ أن أركضَ نحوه، أن أفتحهُ بقدسيّة، وأن أقرأ حروفهُ كأنها وحيٌّ مُنزل،
لكنني اليوم خلعتُ حذائي المُتسخ، ومررتُ بجانبِ الرسالةِ دونَ أن أنحني، تركتها
هناك فوقَ الأرضِ الباردة، جلسْتُ على سريري، ونظرتُ إلى يديّ الخشنتين، شعرتُ
بفخرٍ غريبٍ يختلطُ بوجعٍ مرٍّ، هذه اليدُ التي غسلتِ الرفوفَ اليوم هي يدٌ حرّة، لم
يمولها أحد، ولم يُملِ عليها أحدٌ ما تكتب.

قُمتُ بعد ساعة، وبحركةٍ آليّةٍ حملتُ الرسالةَ ووضعتها فوقَ الطاولة، مُغلقة.

قُلْتُ لمساحة الصّمتِ في الغرفة:

- الآن أنا من يملكُ رفاهيّة التّجاهل، الآن أنتَ من ينتظرُ ردّي، وأنا من يُقرّر متى أسمعُ صوتك.

في تلك الليلة لم أدرس، ولم أكتب، ولم أفتح الرسالة، نِمْتُ بعمقٍ لم أعرفه منذ سنوات، وكأنّ الجوع قد طهرني من عبوديّة الامتتان.

وفي الصباح حين خرجتُ للجامعة، رأيتُ آدم واقفاً عند زاوية الشّارع، كان يمسكُ كوباً من القهوة، وينظرُ إلى يديّ المحمّرتين من أثرِ العمل، اقتربَ مني وبنبرةٍ خاليةٍ من السخريّة لأوّل مرة، قال:

- رأيتك بالأمسِ وأنتِ تُغادرينَ المكتبة، تُعجبني هذه اليدُ المُتعبة يا نور، إنها تبدو حقيقيّة أكثر من كلّ قصائدك القديمة.

لم أجبه، اكتفيتُ بابتسامةٍ باهتة ومضيت، كنتُ أعرفُ أنّ خلفَ ظهري في غرفتي المُغلقة، تقبعُ رسالة قد تغيّرُ قدري، لكنني كنتُ أستمعُ بتركها جائعة للصمت.

مرّت ثلاثة أيامٍ والرسالةُ لا تزالُ قابعةً فوق الطاولة، كأنها قنبلةٌ موقوتةٌ نزعَتْ صاعقها بصمتي.

كنتُ أعودُ من عملي في قبو المكتبةِ عند الغروب، جسدي يئنُّ من التعب، وعضلاتُ ظهري تصرخُ احتجاجًا على ساعاتِ الوقوفِ الطويلة، يداي اللتان كانتا تُداعبانِ أغلفة الكتبِ الفخمة، صارتا الآن تمسحانِ غبارَ السنين عن الرفوفِ المنسيّة، كنتُ أذبلُ جسديًا، شحَبَ وجهي، وغارت عيناى، وفقدتُ كيلوجراماتٍ من وزني في سباقٍ مع لقمةِ العيش، ولكن يا للهول، كم كنتُ أشعرُ بالخفة!

كلّما نظرتُ إلى تلك الرسالةِ المغلقة، شعرتُ بانتصارٍ صغير، كنتُ أقولُ لنفسي:

- انظر يا سيّدي، أنا آكلُ من عرقِ جبينى، وأنا مُملءٌ جفوني دونَ أن أقرأ حرفًا منك، لقد استرددتُ نفسي التي بعثتها لك مقابلَ حفنةِ دنائير.

في اليوم الرابع، كنتُ أرتبُ قسمًا مهجورًا في المكتبة، حين شعرتُ بدوارٍ شديد، كادت الأرضُ تميدُ بي لولا يدٌ قويّةٌ أمسكت بمرفقي، كان آدم.

لم يقلْ شيئًا، سحبَ كرسيًا خشبيًا وأجلسني عليه، ثم قدّم لي شطيرةً ملفوفةً بورقٍ أبيض وقارورةَ ماء.

- كُلي يا نور، الكرامة لا تُشبعُ الجوع، وأنتِ تكادين تتلاشين.

نظرتُ إليه، كانت ملامحه قد فقدت تلك الحدة الغاضبة، وحلّت مكانها نظرةٌ إعجابٍ حزينة، قلّت بصوتٍ واهن:

- أنا بخير يا آدم، التعبُ الذي أشعرُ به الآن هو أجملُ شعورٍ عرفتُهُ منذُ وصولي لهذه المدينة، إنه تعبِي أنا، ليس دَيْنًا في رقبتِي لأحد.

ابتسمَ آدم ابتسامة مريرة، وجلسَ على الأرضِ بجانبِي:

- هل فتحتِ رسالته؟ رأيتُ البريدَ يضعها تحتَ بابكِ منذُ أيام.

هزرتُ رأسي نفيًا:

- تركتها جائعة، أردتُ أن يذوقَ هو طعمَ الانتظار، أردتُ أن يعرفَ أنَّ نورَ ليست مجردَ صفحةٍ يكتبُ فيها ما يشاء، ثم يطويها حين يَمِل.

قال آدم وهو يتأملُ يديَّ المحمرَّتين:

- لقد بدأتِ تشبهينَ لوحاتي يا نور، قويّة، حقيقيّة، ومليئة بالخدوش، الوجوهُ الكاملة مُملّة، أمّا الوجوهُ التي عركتها الحياة، فهي التي تستحق أن تُخلد.

عُدْتُ إلى غرفتي في تلك الليلة، وكان الصَّمْتُ يلفُ المكان، نظرتُ إلى الرسالة فوق الطاولة، ضوءُ القمرِ المنبعثُ من النافذة كان يسقط عليها، فيجعلها تبدو كقطعةٍ ثلجٍ وسط صحراء، لم أفتحها، ذهبتُ إلى فراشي ونمتُ وأنا أبتسم، لقد كان التعبُ يهدُّ

أركانِي، لكنَّ قلبي كان يُزهَرُ كشجرةٍ ياسمينٍ برّيةٍ نمت في شقِّ جدارٍ صلب، كنتُ أعرفُ أنَّ غداً يحملُ امتحاناً صعباً، وعملاً شاقاً، لكنني كنتُ أعرفُ أيضاً أنني ولأوّل مرة، لا أدينُ بوجودي لأحدٍ سوى لنفسي، لم أعد أكتبُ ليراني، صرْتُ أعملُ لكي لا أختفي.

أدركتُ أخيراً أنَّ الكرامةَ ليست جُملةً مُنمّقةً أضعها في نهايةِ رسالة، بل هي تلك الرّعدة في قدميّ وأنا أقفُ لساعاتٍ طويلةٍ في المقهى، أقدمُ القهوةَ لغرباءٍ لا يهتمّهم إن كنتُ متفوّقةً في علمِ النفس، أو كنتُ مجردَ طيفٍ يمرُّ بطاولاتهم، عملتُ في كلّ مكانٍ يقبلُ بيديّ المُتعبتين، مسحتُ زجاجَ المحلّات، ربّبتُ رفوفَ المكتباتِ التي كنتُ أدخلها كملكة، والآن أدخلها كأجيرة.

كلُّ قرشٍ أضعه في جيبِي كان يحويّداً من تلك اليدِ الخفيّة التي كانت تُطعنني، كان الأمرُ مؤلماً، كمن ينتزعُ جلدهُ قطعةً قطعة، لكنني كنتُ أشعرُ بالخفة، الخفة التي تسبقُ السقوط أو الطيران.

لقد قطعَ عني التمويل هكذا ببساطة، وكأنَّ صمتي كان زراً الإغلاق لعالمي المرفّه، لم يعد يهتمّني الجوع بقدر ما أهتمّني أنني انتصرتُ في معركةِ الوجود.

أما الرسالة، تلك الرسالة اللعينة التي جاءت كحكمٍ إعدامٍ أو صكٍّ غفران، فقد تركتها
هناك في غرفتي، لم أجرؤ على اصطحابها معي في حقيبتني، خفتُ أن يفوح منها
عطرُ الماضي فيفسدُ عليَّ صلابة حاضري.

تركتها تقبعُ فوق طاولتي الخشبية، تحت ضوءِ المصباحِ الشاحب، كقنبلةٍ موقوتةٍ
تنتظرُ لحظةً ضعفي، كلما عُدْتُ من العملِ مُنهكة، أرمي بجسدي على السريرِ وأشيحُ
بنظري عنها، أقولُ لنفسي:

- ليس الليلة.. ليس وأنا مُتعبة هكذا، لكي لا تكسرني كلماته.

آدم كان يسألني دائماً بعينيهِ:

- هل فتحتها؟

وكنْتُ أُجيبُهُ بصمتي:

- بقاءُ الختمِ سليماً هو قيدي الوحيد الذي أملكهُ الآن بملءِ إرادتي.

لكنَّ الغرفةَ بدأت تضيقُ بالرسالة، شعرتُ أنَّ الورقةَ التي بداخلِ الظرفِ تتنفس، وأنَّ
الحبرَ بدأ يتسرَّبُ من الحوافِ، ليملأ المكانَ برائحةٍ ذلك الرجلِ الغامض.

في ليلةٍ مُمطرة، عُدْتُ أجزُرَ أذيالِ التعب، وكان مفتاحُ الغرفةِ يرتجفُ في يدي، دخلتُ ولم أشعلِ الضوء، كان ضوءُ الشارعِ المُتسلُّ من النافذةِ يسقطُ مباشرةً على الظرفِ الأبيض، بدا لي وكأنه عينٌ تُراقبني في العتمة.

مشيتُ نحو الطاولة، مددتُ يدي، لمستُ طرفَ الظرفِ بأطرافِ أصابعي، وشعرتُ ببرودةٍ لم تكن ببرودة الورق، بل كانت برودة الحقيقةِ التي نؤجِّلها دائماً، لأننا نعرفُ أنها ستُغيِّرنا للأبد.

أتحسُّ يديّ، فلا أجدُ فيهما سوى أثرِ الأشياءِ التي تركتها خلفي مُجبرة: المُدن التي عبرناها، الشوارعُ التي حفظت رنينَ خطواتنا، والوجوهُ التي منحتنا يوماً ما شعوراً بالأمان، لا شيء منها يُغادرنا حقاً، نحنُ نحملُ الأماكنَ في حقائبِ أرواحنا، نجرُّ خلفنا ذكرياتِ العُرفِ الباردة، ورائحةَ المطرِ على أرصفةِ الغُربة، وصوتِ إغلاقِ الأبوابِ الذي لا يزال يطنُّ في مسامعنا كلما خيم الصمت.

الغريبُ ليس مَنْ يسكنُ وطنًا غير وطنه، بل هو مَنْ يجلسُ في بيته، وبين أهله، لكنه يشعرُ أنَّ قلبه قد سقط منه في مكانٍ آخر، أو مع شخصٍ آخر، أو في حكايةٍ لم تكتمل فصولها بعد.

أنا الآن أدركُ أنَّ الجمال ليس في الوصول، بل في تلك الندوب الجميلة التي تركها
العابرون فينا، نحنُ لسنا سوى قصائد لم تكتمل، وحكايات تُكتب على مهل، وفصولٍ
ننتظرها بشوقٍ لنعرف هل سنظلُّ نحنُ كما نحنُ؟ أم أنَّ الحياة ستُعيدُ صياغتنا من
جديد؟

«إلى نور..

اليَدُ التي تُطعمك لا تحتاجُ لرسائلِك، بل تحتاجُ إلى يقينِك، توقّف المالُ حين شككتِ،
وسيعودُ الآن لأنك صمدتِ، لا تطرقي بابَ البريدِ مجددًا، فالبيوتُ المهجورة لا تردُّ
على الأحياء.

استمري، فالنهايةُ أقربُ ممّا تظنّين».

سقطت الورقة من يدي وكأنها جمرة، كانت الكلمات قليلة، لكنها كانت كافية لتهدمَ
صبري.

« البيوت المهجورة لا ترد على الأحياء » ، هل يسخرُ مني؟ أم أنه يعترفُ أخيراً بأنه مجرد

صدي؟

لم أشعر بالفرح لعودة التمويل، بل شعرتُ برعبٍ يتسلَّل إلى مسامي، المالُ الذي كان أماناً، صار الآن قيداً يربطني بكيانٍ يعرفُ حتى ما يدورُ في خلدي.

في الصباح التالي لم أذهب إلى الجامعة، توجَّهتُ مباشرةً إلى البنك، وقفتُ أمام الآلة الآليّة، أدخلتُ بطاقتي بيدٍ ترتجف، وضغطتُ على كشف الحساب، أغمضتُ عينيَّ للحظة ثم فتحتهما، كان الرقمُ هناك، لقد عادَ المال وبمبلغٍ أكبر، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

شعرتُ بالدّوار، خرجتُ إلى الشارع المُزدحم، والناسُ يمرّون بجانبني كأشباح، توجَّهتُ إلى مرسمِ آدم، كنتُ أحتاجُ لعينيه لكي أرى واقعي.

وجدتهُ يغسلُ فراشيه من بقايا لونٍ أحمرٍ قانٍ، لم أنطق بكلمة، مددتُ له الرسالة، قرأها بسرعة ثم نظر إليّ، وكان وجههُ شاحباً بشكلٍ لم أعهدهُ فيه.

قال بصوتٍ هامس:

- نور، لقد قُلْتُ لك من قبل هذا المبنى مهجور، والآن هو يُخبرك بنفسه أنه مهجور،

هل تُدركين معنى هذا؟

قُلْتُ بصراخٍ مكتوم:

- معناه أنه يراقبني من مكانٍ آخر يا آدم، معناه أنه ليس في البريد، هو في كلِّ مكان!

هَزَّ آدم رأسه ببطء واقترب مني، وأمسك بكتفي بقوة:

- لا، المعنى أبعدُ من ذلك، إذا كان المبنى مهجورًا، والرسائل لا تُقرأ، والمال ما زال يصل، فهذا يعني أنَّ القصةَ ليست قصةً مُتبرِّع، بل قصة لعبة نحنُ قطع الشطرنج فيها، نور.. الليلة سننهي هذا الأمر، سنذهبُ إلى هناك، ليس لنضع رسالة، بل لنكسر الصمت.

تلك الليلة لم ننتظر الضوء الخافت، حمل آدم كشَّافه، وحملتُ أنا خوفي، وتوجَّهنا نحو مكتب البريد، كان الضَّبابُ يلفُّ الشارعَ ككفن، وصلنا إلى البابِ الرئيسيِّ المُوصد.

أخرج آدم من معطفه عتلة حديدية، نظر إليَّ وقال:

- هل أنتِ مُستعدة لتكوني نورًا بلا سقف؟

لم أُجب، أومأتُ برأسي فقط، وضع آدم الحديدَ بين السلسلةِ والباب، وبدأ يضغط بكلِّ قوته، كان صوتُ احتكاكِ المعدنِ بالصدأ يُمزَّقُ هدوءَ الليل، وكأنَّه صرخةُ استغاثةٍ من

ماضي يرفض أن ينكشف، بكل قوّة دفع آدم العتلة، سمعنا صوت تحطّم القفل
الصديّ، صوتاً دوى في الشارع الخالي كطلقة رصاص، تراجعنا خطوة، وانتظرنا أن
يخرج علينا أحد، حارس أو ذلك الرجل ذو المعطف الباهت، لكن لم يخرج سوى هواء
بارد ورائحة تراب وعطن، رائحة أماكن لم تتنفس منذ عقود.

دفع آدم الباب، فاستسلم الصداً بصريّ حاد، دخلنا وكان الظلام في الداخل كثيفاً وله
طعم الرماد، لم يكن هناك أحد، ولا ضوء، ولا غرفة رقم (٧).

كان المبنى مجرد قوقعة فارغة، الغبار يكسو كل شيء، واللوحات الإرشادية مُحطّمة
على الأرض، لم يكن مكتباً للبريد، كان متحفاً للصمت.

قال آدم وهو يُمرّر كشّافه على الجدران العارية:

- نور انظري، لا توجد حتى مكاتب للموظفين، هذا المكان مهجور منذ أمدٍ بعيد، لا
يُمكن لأحد أن يعيش هنا، ولا يمكن لأيّ ضوء أن يشتعل.

وقفتُ وسط الصالة الكبيرة، وشعرتُ ببرودةٍ تسكنُ عظامي، إذا كان المكان ميتاً هكذا،
فمن أين خرجت الرسالة التي وصلتني؟ ومن هو الرجل الذي رأيته؟

لم نجد إجابة، خرجنا والأسئلة تنهش عقولنا، وعُدْتُ إلى حياتي، إلى دراستي وعملي،
والمالُ يتدفَّق في حسابي بانتظامٍ مُريب، أصبحتُ أدرس علم النفس وأنا أعلمُ أنني
أكبرُ حالة دراسية لم تُحلَّ بعد.

عُدْتُ للجامعة، لكنني لم أعد تلك الفتاة التي كانت تتحني شكرًا للظلال، المنحة
عادت، والمال صار يملأ حسابي، لكنني استمررتُ في عملي بالمقهى، نعم.. كنتُ
أخرج من محاضرات سيكولوجية الجماهير لأغسل أكواب القهوة.

كان آدم يُراقبني بدهشة وهو يجلس في ركنه المعتاد بالمرسم، يسألني:

- لماذا ترهقين نفسك يا نور والمال موجود؟

كنتُ أجيبه وأنا أمسح عرق التَّعب:

- لأنني أريد أن أملك ثمن هَرَبِي يا آدم، المال الذي يُرسله هو مال بقاء، أمّا المال
الذي أكسبه بيدي فهو مال حرّية، أريد أن أكون مُستعدة للحظة التي يخنقي فيها هذا
الوهم مرة أخرى.

في أحد الأيام، وبينما كنتُ في المكتبة المركزية، وقع تحت يدي كتاب قديم عن تاريخ
البريد في المدينة، فتحته بفضولٍ غريب، وبدأتُ أبحث عن فرع شارع الصّمت.

كانت الصدمة الأولى وليست الأخيرة: الكتاب يقول أنّ ذلك المكتب تعرّض لحريق كبير قبل سنوات طويلة، وأنّ معظم الأرشيف قد فُقد.

سألت نفسي:

- إذا كان قد احترق، فمن الذي يُرمّم أقاله من الخارج؟ ومن الذي يمسح الزجاج الذي رأيتُ انعكاس الضوء عليه؟

بدأتُ أشعر أنني لا أدرس علم النفس، بل أدرس مؤامرة كونية بطلها أنا، قرّرتُ أن أتوقّف عن مُراقبة المكتب وأبدأ بمراقبة البنك، من هو صاحب الحساب الذي يحوّل لي المال؟

دخلتُ مكتب مدير البنك، كان المكان يفوح برائحة الأوراق الرّسمية والجلود، سألتُهُ سؤالي الذي تدربْتُ عليه أمام المرأة كثيرًا:

- من هو الشخص الذي يضعُ مستقبلي في حسابي كل شهر؟

نظر المدير إلى الشاشة ثم إليّ، ومسح نظارته ببطء، قال بنبرة جافّة:

- التحويلات تتم عبر مكتب محاماة شهير في العاصمة يا آنسة نور، نحن لا نستلم المال من شخص، بل من وكالة قانونية، المال يصلنا كحوالة ثابتة من حساب أمانة يُديره محامي.

شعرتُ ببرودة في أطراف أصابعي:

- وهل يُمكنني مقابلة هذا المحامي؟

هزَّ رأسه بأسى :

- الأستاذ المنشاوي توقَّى منذ ثلاث سنوات، والمكتب الآن تُديره ابنته، لكنهم ملتزمون بتنفيذ الوصية، أو العقود المُبرمة سلفاً، لا يُمكننا إعطاؤك تفاصيل أكثر، فهذه أسرار عُملاء.

خرجتُ من البنك والأسئلة تنهش رأسي، إذا كان المحامي قد توقَّى منذ ثلاث سنوات، فمَن الذي أوقف التمويل حين صمتُ؟ ومَن الذي أعاده حين عملتُ في المقهى؟ لا يُمكن للموتى أن يراقبوا كشوف حساباتي أو صمتي.

توجّهتُ إلى المرسم، وجدتُ آدم واقفاً أمام لوحة كبيرة مُغطّاة باللون الأسود، كأنّه يُحاول رسم العدم، قُلْتُ لَهُ وأنا ألّهتُ:

- آدم، التمويل يأتي من مكتب محامٍ ميّت، وكل شيء يتم عبر وصيّة قانونيّة.

لم يلتفت آدم، بل ظلَّ يُحدّق في سواد لوحته:

- الموتى يا نور هم أكثر الناس وفاءً لوعودهم، لأنهم لا يملكون خيار التراجع، لكنّ الأحياء هم المشكلة، مَنْ الحيّ الذي أخبر مكتب المحاماة أنّ نور توقّفت عن الكتابة؟

نظرتُ إليه بشكٍّ بدأ يتسلّل إلى قلبي لأول مرة:

- أنت يا آدم، أنت الوحيد الذي كنت تعرف أنني توقّفت عن الذهاب لمكتب البريد، هل لك علاقة بهذا؟

ضحك آدم بمرارة، والتفت إليّ وعيناهُ تلمعان بوجعٍ حقيقي:

- أنا؟ أنا الذي أعيشُ على بيع لوحاتي لطلاب الجامعة مقابل قروش؟ لو كنتُ أملكُ ذلك النّفوذ يا نور، لكانت أول رسالة أرسلتها لك هي: اترك هذا الوهم وتعال لي نعيش حقيقةنا، أنا لا أملكُ سوى ريشتي وأنت.

في تلك الليلة قرّرتُ أن أقوم بأخطر خطوة، سأعودُ إلى القرية، سأعودُ إلى تلك
الحجرة القديمة حيث بدأت الحكاية، سأسأل أمي عن الرجل المجهول الذي سلّمها
المظروف الأول قبل سنوات، هل كان هو المحامي؟ أم أنه كان شخصًا آخر نسيّت
ملامحه؟

ركبتُ القطار المتّجه جنوبًا، ومع كل كيلومتر يقطعه القطار، كنتُ أشعرُ أنني أخلعُ
قناع نور الجامعيّة لأعود تلك الطفلة الخائفة.

وصلتُ في الفجر، كانت القرية غارقة في الضباب، طرقتُ باب بيتنا ففتحت لي أمي،
وبدا لي أنّها كبرت عشر سنوات منذ آخر لقاء، نظرت إليّ بدُعر وكأنها رأت شبحًا:

- نور! لماذا جئتِ؟ هل حدث مكروه؟ هل انقطع المال؟

أمسكتُ يدها المتشقّقة، ودخلنا الصالة الضيقة:

- أمي، أخبريني الحقيقة، الرجل الذي جاء إليك منذ سنوات ومنحني المنحة، كيف
كان شكله؟ وماذا قال لك بالضبط؟

تجنّبت أمي نظراتي، وبدأت تحرك أصابعها بتوتّر:

- يا ابنتي لقد مرّ زمن، كان رجلاً وقوراً، يرتدي معطفاً باهتاً، ولم يقل الكثير، قال فقط إنَّ ابنتك ذكيّة، وهناك مَنْ يريد أن يرى ذكاءها يُثمر.

قُلْتُ بصرخة مكتومة:

- أمي! المعطف الباهت؟ هل كان يضع قبعة؟ هل كانت عيناه غائرتين؟

سكتت أمي، وفجأة بدأت بالبكاء:

- نور، لا تنبشي في القبور، الرجل قال لي أنّك إذا سألت يوماً عن هويّته، فهذا يعني

أنّك لم تعد بحاجة للمال، وأنّ المنحة ستنتهي فوراً، هل تُريدين العودة للفقر يا ابنتي؟

هنا أدركتُ أنّ أمي تعرفُ أكثر ممّا تقول، أو أنها تخافُ أكثر ممّا ينبغي.

أقفُ الآن في مركز الضوء، المسرح الخشبي يئنُّ تحت ثِقلي، كأنّه يُعاتبني على كل

تلك الكلمات التي أهدرتها في الفراغ، يدي تقبضُ على الشهادة بحدّة، ليس فخراً، بل

لكي لا أسقط، أصواتُ التصفيق في القاعة تُشبهُ صوت المطر على سقف مكتب

البريد القديم، رتيب، بارد، ولا يعبأُ بوجع أحد.

نظرتُ إلى وجوه الحاضرين، بدوا لي كأطيافٍ باهتة، لم أكن أرى العميد ولا الأساتذة،
كنتُ أرى تلك الرحلة التي بدأت بظرفٍ غامض وانتهت بجدارٍ مسدود.

فتحتُ فمي لألقي كلمة الخريجين، لكنَّ الكلمات التي خرجت لم تكن تلك التي كتبْتُها
في المسودَّة الرّسمية، قُلْتُ في سرِّي وأنا أسترجعُ شريط الهاوية:

- قبل أن أقف هنا، كنتُ أظن أنَّ العلم يُشترى بالورق، واكتشفتُ أنه يُدفعُ ثمنه من
دم الروح.

عُدْتُ بذاكرتي إلى تلك الليلة في القرية، قبل أسبوع واحد من هذا الحفل...

كانت الرائحة في العلّية ليست رائحة غبار، بل رائحة أزمنةٍ تعفّنت، في ذلك الصندوق
الخشبي الذي أشارت إليه أُمِّي لم أجد إجابات، وجدتُ مرايا لضحايا سابقين.

مددتُ يدي إلى كومة الرسائل القديمة، كانت هناك رسائل تعود للسبعينات، وأخرى
للثمانينات، قرأتُ رسالة لفتاة تُدعى ليلي، كانت تكتب بذات الشغف، بذات الخوف،
وبذات الرجاء الذي كنتُ أكتب به، كانت تقول:

- سيّدي، هل تسمعي؟ أم أنّني أكتبُ للهواء؟

كانت الصدمة أنَّ كل هذه الرسائل كانت مختومة بالشَّمع الأحمر، ولم تُفتح قط.

نحنُ لسنا طلابًا يا سيدي، نحنُ محصولُ كلمات، نحنُ حقولٌ تُسقى بالمال، لكي تُنتج اعترافات تُترك لتتعفّن في الصناديق.

نزلتُ من العلية وأنا أرتجف، واجهتُ أمي، لم تكن تبكي هذه المرة، كانت تنظر إليّ بشفقةٍ غريبة:

- نور، القرية كلها تعرف، هذا المكتبُ مُغلقٌ منذ أن كنتِ في المهد، لكننا نحتاجُ للوهم لكي نعيش، المالُ كان يصلُ من جهةٍ لا تبالي برسائلِك، كانت تُبالي فقط بأن تظلي تكتبين، الكتابة هي القيد الذي يمنعكِ من التمرد على واقعكِ.

عُدتُ إلى واقعي، إلى الأضواء المُسلّطة على وجهي، نظرتُ إلى آدم الجالس في الصف الأول، كان يبتسم لي، لكنها لم تكن ابتسامة حب، كانت ابتسامة شريكٍ في السر، أدركتُ حينها لماذا كان يُرافقني دائمًا لمكتب البريد، لم يكن يحميني، كان يتأكّد من أنَّ العيّنة لا تزال تضع رسائلها في الصندوق المسدود.

أمسكتُ الميكروفون، وبخنجرةٍ جرحها الصمت، قُلْتُ للجمهور:

- يقولون أنّ العلم نور، لكنني اكتشفت أنّ بعض النور يعمي الأبصار، شكرًا لكل من ساهم في تعليمي، وشكرًا بشكلٍ خاصٍ لذاك الذي لم يقرأني يومًا، فبسببه تعلّمتُ أن أقرأ نفسي.

نزّلت من المسرح، لم أنتظر السلام ولا التبريكات، مشيتُ بوشاح تخرّجي الأسود في ممّرات الجامعة، كنتُ أشعر أنّني أخلعُ جلدي.

توجّهتُ للمرة الأخيرة نحو ذلك المبنى المائل في شارع الصّمت، لم يكن معي رسالة هذه المرة، وقفتُ أمام الصندوق الحديدي، مددتُ يدي، ولمستُ الفتحة الضّيقة، كانت باردة، صامتة، وميّتة.

دفعْتُ الصندوق بكل قوتي، فمالَ قليلًا ليكشف عن الفجوة التي خلفه، لم تكن هناك رسائل، ولم يكن هناك جدارٌ مسدود بالأسمنت فقط، كانت هناك مرآة كبيرة مُعبّرة خلف الصندوق.

في تلك اللحظة فهمتُ كل شيء، الرسائل كانت تسقطُ أمام المرآة، فترتدُّ الكلماتُ لصاحبها، لم يكن هناك سيّد، ولم يكن هناك مُتبرّع.

كان هناك نظام قديم يمول الفقراء، بشرط أن يواجهوا أنفسهم عبر الكتابة، أنا من كنتُ أتبرعُ لنفسي بالأمل، وأنا من كنتُ أردُ على نفسي بالخيبة.

خرجتُ من المبنى، وخلعتُ قبعة التخرج، ورميتها في وسط الطريق.

الرواية لم تنتهِ بنجاحي كطبيبة نفسيّة، بل بدأت بكوني أول مريضة تكتشف أنّ طبيبها كان وهماً صنعتُهُ الحاجة.

في البدء، لم يكن المالُ مالاً، كان ضوءاً سقط على عتمة قريتنا، فظننا أنّه الفجر، لم نُدرك أنّ الضوء الذي يأتي من يدٍ لا تراها، هو في الحقيقة قيد يلتفّ حول عنقك بملمس الحرير.

تعلّمتُ في الجامعة أنّ النفس البشرية تخاف من الفراغ، لذا نحن نخترع الأسياد حين يغيب العدل، ونخترع المعجزات حين يشتدّ الجوع، كانت رسائلِي الشّهريّة هي جسري لوهم صنعتُهُ حاجتي، كنتُ أكتبُ لكي أستحقّ البقاء، وما عرفتُ أنّ الذي يستحق الحياة لا يحتاجُ لتقديم كشفٍ حسابٍ عن أحلامه لكل عابر.

تعلّمت ألا أقبل نورًا يحجبه صاحبُ المنّة متى شاء، فالعلم الذي لا يجعلك حرًا من
الخبز، هو مجرد زينةٍ في زنزانةٍ أنيقة.

مشيتُ في شوارع هذه المدينة لسنوات، أحمل حقيبتَي المُثقلة بالكتب، وقلبي المُثقل
بالامتنان، كان الامتنان هو مرضي العضلي الذي لم أجد له علاجًا في كُتب الطب
النفسي، كيف تُداوي شخصًا يشعر أنه مدين بوجوده لشبح؟

كنتُ أنظر إلى زملائي الذين يدرسون بلامبالاة، وأحتقرُ رفاهيّتهم، بينما كنتُ أنا
أحترق لأثبت لغائبي أنني أستحق استثماره، اكتشفتُ لاحقًا أنّ أرواحنا ليست حصصًا
في بورصة، وأنّ الذي يُراقبُ نموّك خلف الزجاج لا يُحبّك، هو فقط ينتظرُ نُضج
الثمرة ليقطف حكايتها.

احذر من الذين يرمّمون كسورك لكي يروك تمشي حسب بوصلتهم، فالعظمة الحقيقية
تبدأ عندما تجبرُ كسرك بيدك، حتى لو بقيت أعرجًا طوال عمرك.

العلية في بيتنا، والغبار في مكتب البريد، كانا يهمسان بالحقيقة التي رفضتُ سماعها:
التاريخ يُعيد نفسه على شكل مأساة للفقراء.

رأيتُ رسائل فاطمة وياسين، وجوهٌ ذابت وبقيت كلماتُها حبيسة الصناديق، أدركتُ أنَّ مكتب البريد لم يكن جسرًا، كان مقبرة جماعيَّة للأمانى، نحنُ نكتبُ لنفرغ أوجاعنا، وهم يجمعون هذه الأوجاع ليصنعوا منها نظريَّات.

المرأة التي وجدتُها خلف الصندوق كانت هي الصفعة الكبرى، كنتُ أظنُّ أنَّني أحدثُ سيِّدًا، بينما كنتُ أقفُ أمام مرآةٍ مشروخة، أتأملُ انكساراتي، وأظنُّها وحيًا من السماء، لقد كان هو مجرد صدى لصوتي، وكان المال هو الوقود الذي يجعلني أستمر في الكلام، فمن يبحث عن الحقيقة خلف الأبواب المُغلقة، عليه أن يستعدَّ لرؤية وجهه هو أولاً، فالمُعجزات التي ننتظرها من الخارج غالبًا ما تكون مُخبَّأة في جيوبنا الداخلية، لكننا نخشى البحث عنها.

وضعتُ حقيبتى على كتفى، كانت خفيفةً بشكلٍ لم أعهدُه، وكأَنَّني أفرغتُ منها أطنان الغبار التي جمعتها من مكاتب البريد وعلَّيات البيوت، مشيتُ في الممر الطويل لجامعتي للمرة الأخيرة ولم ألتفت خلفي، فالمساحات التي نلتفتُ إليها تسحبُ من أرواحنا قدرتنا على التَّقدم.

عند بوابة الجامعة الكبيرة توقفتُ، خلعتُ وشاح التخرج الأسود، ذلك الرداء الذي كان يُشبه ليل الغُربة، ووضعتُه بهدوء على مقعدٍ رخامي بارد، لم أعد بحاجةٍ لتمثيل دور الناجحة في مسرحية شخصٍ آخر.

كان الهواءُ في الخارج باردًا ومُنْعَشًا، تفوحُ منه رائحة المطر والتراب، رائحة الحقيقة، أخرجتُ من جيبِي القلم الذي كتبتُ به مئات الرسائل لسَيِّدي المجهول، نظرتُ إليه طويلاً، ثم ألقيتُه في نهر المدينة الجاري، ومع ارتطام القلم بالماء، شعرتُ بغصّة قديمة تذوبُ في حنجرتي وتختفي.

سأعودُ إلى قريتي، لا لكي أنكسر، بل لكي أزرع الأرض التي أهملتها خلف الأوراق، سأفتحُ نوافذ البيت ليدخلها النور الذي لا يحتاجُ لتبرّع، وسأعلمُ أُمِّي أنَّ الكرامة في لقمة عيشٍ نخبزها بأيدينا، أشهى بآلاف المرات من وليمةٍ تأتي من خلفِ جدارِ الشك.

لقد اكتملت الحكاية، ولم يكن الختامُ لقاءً ولا كشفًا لهويّة غامض، بل كان اكتشافًا لنور التي ضاعت خلف اسمها، اليوم أنا لستُ مَدِينة لأحد، ولستُ أسيرةً لبريد، ولستُ حكايةً في صندوق، أنا الآن أنا.

وضعتُ قدمي على الطريق المؤدّي لمحطة القطار، ومع كل خطوة كان يفوح من
روحي مسكُ الرضا، لقد خسرتُ المنحة، وخسرتُ الوهم، لكنني ربحْتُ الشيء الوحيد
الذي لا يُمكن لمدير بنك، أو محامٍ ميت، أو متبرّع مجهول أن يمنحه لي: لقد ربحْتُ
نفسي.

« إلى غائبي، مرثية الخذلان »

«إلى الغائب الذي كان صلاتي، وصار محنتي..

أكتبُ إليك بقلبٍ لم يعد يعرفُ كيفَ ينبضُ دونَ أن يرتجف، لقد أحبيتُك حبًّا ملاً
الأرضَ والسماءَ، حبًّا ظننتُ أنه سيشفعُ لي خطيئتي حينَ تضيقُ بي الدنيا، لكنَّ
الضغطَ النفسيَّ والحاجةَ المُرَّةَ كانا وحوشًا تنهشُ ملامحي، فتعثّرتُ.. نعم، تعثّرتُ في
وحلِ الضعفِ البشريِّ، وكنتُ أظنُّ أنَّ صدركَ هو المغفرة التي لا تغلقُ أبوابها، لكنَّكَ
اخترتَ أن تكونَ السَّوطَ لا السَّكنَ.

أذلتني، أوجعتَ كبريائي بمهانةٍ لم أكن أتخيّلُ يومًا أنها قد تأتي من اليدِ التي كنتُ
ألوذُ بها من خوفِ العالمِ، جعلتَ من عثرتي فُرصةً لتكشفَ عن وجهٍ لم أعرفه، وجه
بارد لا يرحم، يستغني في اللحظة التي كنتُ أحتاجُ فيها لمن يُرمّمُ انكساري.

قتلتني.. قتلتني حينَ أدركتُ أنَّ كلَّ كلماتك الشاعرية، ورسائلك التي كنتُ أقاتلُ
عليها، لم تكن سوى فخٍ مُحكم، كنتَ تراقبهُ بذكاءٍ لتمسكَ بضعفي، وبدلاً من أن تسمعَ
صوتَ وجعي، اخترتَ أن تذبحني بصمتك، وتستغني عني وكأنّني لم أكن يوماً
سكّناك.

ومع كل هذا النزيف، ومع كل تلك المهانة التي أحرقتَ وجهي، يا لسخفي!

ما زِلْتُ حينَ ينهشني الحنينُ في سكونِ الليل، أعودُ لأقرأ تلكَ المحادثاتِ القديمة، أقرأ
سمَّكَ المدسوس في العسل، وأبكي كغريقةٍ تتلمَّسُ أثرَ القاتلِ في ثيابها، أراقبُ حالةَ
نشاطك على الشاشة، أتأمِّلُ تلكَ النقطةَ الخضراء الصغيرة، وأتساءل: كيف ينامُ مَنْ
ذبحَ روحًا كانت ترى فيه وجهَ الله في أرضه؟

لقد رحلتَ أنتَ بزهوةٍ الزائفِ، وبقيتُ أنا أَلُمُّ شظايا كرامتي التي بعثرتها بدمٍ بارد.
شكرًا لأنَّكَ علَّمتني أنَّ الحبَّ عندَ البعضِ هو مجرد قناع يسقطُ عند أولِ اختبار،
وشكرًا لأنَّكَ جعلتني أدرك أنَّ مَنْ يستغني في لحظةٍ الضعف، لم يُحبَّ يومًا إلَّا نفسه.

خَسِرْتُ السَّقْفَ فَرَبِحْتُ السَّمَاءَ ، وَبَعْدَ أَنْ أَطْفَأَ الْجَمِيعُ قَنَادِيلَهُمْ فِي وَجْهِي ، أَدْرَكْتُ
أَنَّ النُّورَ الَّذِي كُنْتُ أَبْحُثُ عَنْهُ ، كَانَ يَحْتَرِقُ فِي صَدْرِي طَوَالَ الْوَقْتِ».